Rimak International Journal of Humanities and Social Sciences
ISSN: 2717- 8293

Research Article March 2022 Volume: 4 Issue: 2

A READING OF THE FEATURES OF THE ALMOHAD POLITICAL PROJECT AND THE EXPERIENCE OF MOVING FROM THE CONCEPT OF THE GROUP TO THE CONCEPT OF THE STATE

Metin ŞERIFOĞLU [1]

Istanbul / Türkiye
p. 366-390

Received: 26/11/2021
Accepted:22/01/2022
Published: 01/03/2022

This article has been scanned by **iThenticat** No **plagiarism** detected

Abstract:

Although the Arab region and the Islamic world witnessed a number of Islamic political experiences that played a prominent role in the historical paths of this vast geography, the Almohad political experience remains the most important distinguished political projects that emerged in the Islamic Maghreb region, as it played an active role in the map of balances at the regional and international levels. This experiment was launched as a religious reform movement led by Muhammad bin Tumart, who believed that a serious political project could not be established in the region without launching a process of broad religious reform due to a reality that was overshadowed by ignorance of religion, and in which myths and deviations spread. Indeed, Ibn Tumart was able to lay the foundations for this reform movement, to later develop and turn into a political movement, which was then able, thanks to Abdel-Moumen bin Ali, to overthrow the Almoravid state and to transfer the Almohad political project from the narrow concept of the group to the broad concept of the state. Therefore, regardless of the accusations that Ibn Tumart was accused of regarding his claim of Mahdism and the fabrication of false prophetic hadiths, the experience of his movement remains a different one, worthy of study and standing on its most important intellectual and political characteristics and advantages. The Almohad political project was a strategic choice that affected the nature of balances and the geopolitical and strategic map of the Islamic West region, which was characterized by intertwining and overlapping during the medieval period. From this logic, we will, in this research, study the political project from the foundation stage in the era of Ibn Tumart to the date of the death of his successor, Abd al-Mumin ibn Ali in the year 558 AH. We will discuss this research in three main topics: First, the formation of the Almohad political project and the features of the first founding phase / secondly the death of Ibn Tumart and the features of the second founding phase with Abdul Mumin bin Ali / Thirdly, the end of the Almoravids and the third founding phase of the Almohad project in the era of the believer.

Key words: Almohads, Ibn Tumart, Al-Mahdi, Abdul-Mumin, The Group, The State, Al-Mourabitoun, Balances.

http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.16.25

[1] Dr. , Mardin Artuklu University, Türkiye, zoubeirk@gmail.com

Copyright © Published by Rimak Journal, www.rimakjournal.com
Rimar Academy, Fatih, Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

قراءة في ملامح المشروع السياسي الموحدي وتجربة الانتقال من مفهوم الجماعة إلى مفهوم الدولة

د. متين شريف أوغلو [2]

الملخص:

لئن شهدت المنطقة العربية والعالم الإسلامي جملة من التجارب السياسية الإسلامية التي لعبت دورا بارزا في المسارات التاريخية لهذه الجغرافيا الواسعة، إلا أن التجربة السياسية الموحدية تظل أهم المشاريع السياسية المتميزة التي ظهرت في منطقة المغرب الإسلامي،حيث أنها لعبت دورا فاعلا في خريطة التوازنات على المستوى الإقليمي والدولي. وقد انطلقت هذه التجربة كحركة إصلاح ديني قادها محمد بن تومرت الذي كان يعتقد أنه لا يمكن تأسيس مشروع سياسي جاد في المنطقة دون الانطلاق بعملية إصلاح ديني واسع لواقع خيم عليه الجهل بالدين، وانتشرت فيه الخرافات والانحرافات. وفعلا تمكن ابن تومرت من وضع أسس هذه الحركة الإصلاحية، لتتطور فيما بعد وتتحول إلى حركة سياسية، استطاعت بعد ذلك بفضل عبد المؤمن بن علي أن تسقط دولة المرابطين وأن ينقل المشروع السياسي الموحدي من حيز مفهوم الجماعة الضيق إلى حيز مفهوم الدولة الواسع. لذلك وبغض النظر عن الاتهامات التي اتهم بها ابن تومرت في مسألة ادعائه المهداوية واختلاق أحاديث نبوية مكذوبة، تظل تجربة حركته تجربة مختلفة، تستحق الدراسة والوقوف على أهم خصائصها ومميزاتها الفكرية والسياسية. فقد كان المشروع السياسي الموحدي خيارا استراتيجيا أثر في طبيعة التوازنات، وفي الخارطة الجيوسياسية والاستراتيجية لمنطقة الغرب الإسلامي التي اتسمت بالتشابك والتداخل خلال فترة العصر الوسيط. ومن هذا المنطق سنقوم في بحثنا هذا بدراسة المشروع السياسي منذ مرحلة التاسيس في عهد ابن تومرت إلى تاريخ وفاة خليفته عبد المؤمن بن علي سنة 558هـ. وسنتناول هذا البحث في مباحث ثلاثة رئيسية: أولا تشكل المشروع السياسي الموحدي وملامح مرحلة التأسيس الأولى/ ثانيا موت ابن تومرت وملامح مرحلة التأسيس الثانية مع عبد المؤمن بن علي/ ثالثا نهاية المرابطين ومرحلة التأسيس الثالثة للمشروع الموحدي في عهد المؤمن.

الكلمات المفتاحية: الموحدون، ابن تومرت، المهدي، عبد المؤمن، الجماعة، الدولة، المرابطون، التوازنات.

المقدمة:

كانت فترة نهاية القرن 5 هـ مرحلة مهمة في تاريخ شمال إفريقيا وفي تاريخ الأندلس، حيث شهدت عدة تغيرات وتحولات جيوسياسية في خريطة التوازنات على عدة مستويات إقليمية ومحلية ودولية، فقد ظهرت دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الذي استطاع على مدار حكمه أن يوحد قسماً من شمال إفريقيا، وأن يسيطر على الأندلس بعد معركة الزلاقة التي انتصر فيها على الإسبان. ورغم أن دولة المرابطين قد وصلت إلى أوج قوتها في عهد يوسف بن تاشفين إلا أن هذه الدولة بدأت تشهد تراجعاً وضعفاً مع وفاته، لتكون بداية القرن 6هـ هي مرحلة السقوط النهائي لهذه الدولة وهي لازالت دولة شابة. وبغض النظر عن أسباب سقوط الدولة المرابطية وانهيارها إلا أنه يجب أن نذكر سبباً مهماً، تمثل في كون هذه الدولة بعد وفاة يوسف بن تاشفين فقدت من داخلها عوامل الاستمرارية المتمثلة في الالتزام بالمبادئ المرابطية التي انطلقت مع مؤسسها الأول عبد الله بن ياسين وعمر اللمتوني، وترسخت بشكل أكبر مع يوسف بن تاشفين، وبرحيل هذا الأخير دخلت الدولة المرابطية في مرحلة الضعف، وبدأت

[2] د.، جامعة ماردين، تركيا، zoubeirk@gmail.com

Volume: 4 Issue: 2

عوامل التآكل والسقوط تدب فيها. في مقابل ذلك بدأت في الآن نفسه ملامح ولادة مشروع دولة جديدة وهي الدولة الموحدية التي تأسست فعلياً في الربع الثاني من ق 6 هـ بقيادة زعيمها الأول محمد مهدي بن تومرت، حيث نجح في تأسيس مشروع سياسي في منطقة المغرب الإسلامي ليكون بديلاً لدولة المرابطين.

ولكي نقرأ الظروف التاريخية لولادة المشروع السياسي الموحدي كان لزاماً علينا أن نشير إلى الظروف السياسية التي وصلت إليها الدولة المرابطية. فالموحدون ظهروا في فترة قلق سياسي شهد تحولات وثورات في منطقة المغرب الإسلامي، إضافة إلى التدخل الصليبي خصوصاً النورماني والإسباني، مما جعل هذه المنطقة تشهد هزات سياسية عنيفة، ساهمت في تشرذمها وانقسامها إلى عدة دويلات وكيانات سياسية متناحرة فيما بينها. وتعرضت منطقة شمال إفريقيا والمغرب الإسلامي إلى تهديدات كبرى من قبل الصليبيين الذين وجدوا الفرصة سانحة أمام هذا التشرذم السياسي والانقسمات في المنطقة للانقضاض والسيطرة عليها.

في ظل هذه الظروف ولدت فكرة ضرورة تأسيس دولة إسلامية جديدة بقيادة المهدي بن تومرت الذي عايش فترة ضعف الدولة المرابطية، وشاهد حالة التشرذم والتهديدات التي باتت تتربص بالمنطقة. لم يكن ابن تومرت في مراحل شبابه يفكر في مشروعه السياسي، فقد كان شغوفاً بطلب العلم، ومكث مدة في الأندلس، تلقى فيها العلم وتأثر بأفكار ابن حزم، ثم رحل إلى الشرق الذي كان يشهد تغيرات وصراعات سياسية كبرى. وقد مكث ابن تومرت في رحلته إلى الشرق مدة عشر سنوات، ساهمت في نعت مشروعه الفكري، وتعلم فيها المنهج التأويلي، وتابع عن قرب ملامح المشروع السياسي السلجوقي، وقدرة الأتراك على قيادة المشروع السني ومواجهة الصليبيين. لذلك كانت تجربة الرحلة إلى الشرق منعطفاً مهماً وجوهرياً في شخصية محمد بن تومرت فكرياً وسياسياً. وقد كانت عودته من رحلة الشرق بداية لتكوين مشروعه السياسي الذي سيتطور، ويأخذ منعطفاً جديداً نحو ظهور الدولة الموحدية التي أصبحت لاعباً مهماً في التاريخ السياسي لمنطقة شمال إفريقيا وفي منطقة المغرب الإسلامي بأكملها.

ولئن كان المشروع السياسي والفكري لابن تومرت محل نقاشات وحوارات من قبل الكثير من المؤرخين والمفكرين، إلا أن هذا المشروع الموحدي كان علامة فارقة في التحولات المعرفية والفقهية داخل منطقة المغرب الإسلامي، ومَثَّلَ تياراً عقلياً جديداً مناقضاً للتيار النقلي التقليدي الذي كان منتشراً في المنطقة في عهد الدولة المرابطية، كما كان هذا المشروع الموحدي من الناحية السياسية رؤية جديدة للتعاطي مع الفعل السياسي ومع طبيعة التحولات الموجودة في المنطقة، وخطاً جديداً يؤمن بوحدة المنطقة وصهرها ضمن مشروع سياسي جامع وموحد.

من جهة أخرى اعتبرت التجربة السياسية الموحدية نموذجاً متقدماً لنواة المشروع السياسي السني الذي سيقود المنطقة، ويوحدها ويحميها من التهديدات والمخاطر التي تحدق بها، خصوصاً من المشروع الصليبي النورماني والإسباني اللذين كانا يعملان على الهيمنة على منطقة الغرب الإسلامي نحو الزحف إلى الشرق الإسلامي، والسيطرة عليه مع المشروع الصليبي القادم من أوروبا. ويمكن اعتبار فكرة المشروع السياسي في العقل السياسي السني تعود بالدرجة الأولى إلى ما شاهده ابن تومرت في رحلته إلى الشرق، وتأثره بفكرة المشروع السياسي السني الذي قاده الأتراك في تلك الفترة. من هذا المنطلق تقوم إشكالية بحثنا هذا حول دراسة المشروع السياسي الموحدي وملامحه الفكرية والسياسية ودوره في التأثير على خريطة التوازنات المحلية والإقليمية والدولية في فترة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي، أي من سنة 516هـ إلى سنة 558هـ.

- منهجية البحث:

وسنتوخى في هذا البحث المنهجية التحليلية والاستقرائية القائمة على المحاور الأساسية التالية: أولا تشكل المشروع السياسي الموحدي وملامح مرحلة التأسيس الأولى/ ثانيا موت ابن تومرت وملامح مرحلة التأسيس الثانية مع عبد المؤمن بن علي/ ثالثا نهاية المرابطين ومرحلة التأسيس الثالثة للمشروع الموحدي في عهد المؤمن.

– أهداف البحث:

نرمي من هذا البحث تحقيق الأهداف التالية:

– فهم الظروف التاريخية والسياسية التي وُلِدَ فيها المشروع السياسي الموحدي.

– قراءة في الأبعاد الفكرية والسياسية لهذا المشروع.

– فهم الخلفيات السياسية لمسالة المهداوية التي ادعاها محمد ابن تومرت

– فهم التأثير الذي لعبته الدولة الموحدية في تغيير بنية النظام الاجتماعي المغاربي.

– معرفة وفهم حركة الاصلاح الديني التي قادها الموحدون في تلك القرى.

– معرفة خريطة التحالفات القبلية وتشابكها في المنطقة وقدرة الموحدين في التأثير عليها.

– فهم دور المشروع السياسي الموحدي في التأثير على خريطة التوازنات المحلية والإقليمية والدولية في منطقة المغرب الإسلامي.

– معرفة المسارات والوسائل التي نجح فيها المشروع السياسي الموحدي من الانتقال من مفهوم الجماعة الضيق إلى مفهوم الدولة الأوسع.

Volume: 4 Issue: 2

المبحث الأول: تشكل المشروع السياسي الموحدي وملامح مرحلة التأسيس الأولى:

1) محمد بن تومرت مؤسس المشروع الموحدي:

لا يمكن الحديث أبداً عن المشروع السياسي الموحدي دون الحديث عن مؤسسه الأول محمد بن تومرت الذي لُقِّبَ بعد ذلك بالمهدي. فقد ولد هذا الرجل في إحدى مناطق الأطلس بالمغرب الأقصى سنة 471 هـ في مسقط رأسه في نومكران، وهي منطقة فقيرة قاحلة، يصعب العيش فيها، وينتمي ابن تومرت إلى عائلة معوزة فقيرة، ليس لها جاه ولا مكانة اجتماعية. حيث نشأ هذا الطفل في هذه المنطقة التي كان ينتشر فيها الجهل والبؤس الأمر الذي جعل ابن تومرت يركز على حفظ القرآن والتعلم، حيث كان شغوفاً بحب العلم وبالمعرفة، وكان يختلف عن أقرانه في تلك المنطقة. ولعل هذا الحب للعلم والمعرفة كان الدافع الكبير في تشكيل شخصية ابن تومرت الذي انتقل بعد ذلك إلى الأندلس لطلب العلم، حيث كانت الأندلس خاضعة لسيطرة الدولة المرابطية بعد انتصار يوسف بن تاشفين على الصليبيين في معركة الزلاقة المشهورة، ووحد الأندلس وأخضعها إلى سلطته، حيث عرفت الأندلس في تلك الفترة استقراراً اجتماعياً واقتصادياً، كما عرفت حركة علمية نشطة جعلت ابن تومرت يتجه إليها ليطلب فيها العلم، حيث مكث فيها ودرس المذهب الظاهري لابن حزم الأندلسي، فكان لهذا المذهب تأثير مباشر في تشكيل الشخصية المعرفية لابن تومرت وتكوينه الديني والعقائدي (ابن القطان، الصفحات 36-39).

2- رحلة ابن تومرت إلى الشرق وتأثيرها تشكيل مشروعه الفكري والسياسي:

لم يمكث ابن تومرت في الأندلس مدة طويلة، فقد قرر الرحيل إلى المشرق العربي لطلب العلم، حيث توجه نحو الإسكندرية عبر البحر الأبيض المتوسط، ثم بعد ذلك توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ومن هناك توجه إلى بغداد بقصد طلب العلم. (ابن خلدون، 1988) وقد تتلمذ في بغداد على كبار العلماء، من بينهم: مبارك بن عبد الجبار الذي أخذ عنه علم الحديث، وكذلك تتلمذ على يد أبي بكر الساسي وأخذ عنه علمَي الفقه والأصول. وتشير أغلب المصادر التاريخية إلى أن ابن تومرت التقى في بغداد بالإمام أبي حامد الغزالي الذي عايش ابن تومرت حرق كتابه " إحياء علوم الدين " في الأندلس، الأمر الذي أثار الفضول عند ابن تومرت لمعرفة الإمام الغزالي، والتعرف على شخصيته وأفكاره. غير أن هذه المصادر وقعت في خطإ نسج أسطورة ابن تومرت الذي تلقى العلم على يد الغزالي، حيث بشره بأنه سيكون له شأن عظيم، وسيكون له الفضل الكبير لإعادة الاعتبار له ولكتبه التي أحرقت في الأندلس، بأمر قضاتها وفقهائها (ميراندا، 2004، الصفحات 37-38).

وبغض النظر عن اختلاف هذه المصادر وتناولها لرحلة ابن تومرت إلى بغداد، إلا أن هذا الأخير قد تشكلت شخصيته المعرفية في بغداد، وتوسعت أفكاره الدينية والفلسفية وكذلك السياسية. فبالإضافة إلى معرفته بالمذهب الظاهري، فقد أتقن ابن تومرت في بغداد فن النقد والجدال، حيث انبهر إلى حد كبير بفكر المتكلمين، وتلقى عنهم علم الكلام الذي سيساعده فيما بعد على محاربة المدارس الفقهية الكلاسيكية، وكذلك القدرة على نشر دعوته أثناء عودته إلى المغرب. لقد أثرت رحلته إلى بغداد على طريقة تفكيره ومنهجه، فتعرف على المنهج التأويلي، وتعصب له، وأصبح يتبنى المنهج العقلي، بعد أن كان يعتبر أن لا اعتبار للعقل في التشريع الإسلامي. كما أخذ ابن تومرت بالمذهب الاعتزالي بعد أن كان أشعرياً، وجعل منه قاعدة لعقيدته وأساساً لمذهبه الإصلاحي والدعوة إلى التوحيد بالمفهوم الاعتزالي، وجعله نقطة انطلاق في مشروعه الفكري والإصلاحي والسياسي (محمد بن تومرت، 1997، صفحة 223).

لقد مثلت هذه الأفكار مرتكزات مواقفه السياسية، وحددت طبيعة علاقته بدولة المرابطين، والدخول معهم في اختلافات جذرية ستصل إلى حد التصادم بعد عودته من رحلة الشرق التي عاد منها بعد أن عايش تجربة السلاجقة السياسية، وتأسيسهم لمشروع إسلامي سني، قاد المنطقة ضد الصليبيين الذين نجحوا في احتلال عدة مناطق في الشرق العربي، وفي مقدمتها القدس

الشريف سنة 1099. عاد ابن تومرت من المشرق وهو مشبع بتجارب فكرية وسياسية جديدة سيعمل على نشرها وتحقيقها على أرض الواقع.

3- عودة مهدي بن تومرت وبداية مرحلة الدعوة:

استمرت رحلة ابن تومرت إلى الشرق حسب بعض المصادر التاريخية عشر سنوات، بعد أن تلقى العلم هناك، وتشرب بعلم الكلام والمنهج التأويلي، مما سيجعله أحد أهم الشخصيات القادرة على مجادلة ومناقشة علماء شمال أفريقيا، خصوصا في بلده، حيث يسيطر عليها التيار النقلي الرافض لكل ماهو عقلي. لم تكن عودة ابن تومرت إلى مسقط رأسه عودة عادية، فقد عاد وفي داخله يسكن حلم تأسيس مشروع فكري وسياسي إصلاحي، تشكلت ملامحه العامة في رحلة الشرق، وبعد أن عايش فيهل تجارب سياسية مختلفة، كانت له حافزا في التفكير نحو تأسيس مشروع سياسي وفق أفكاره ومعتقداته الجديدة التي أصبح يؤمن بها. وتتفق المصادر التاريخية على أن عودته إلى منطقة المغرب العربي كانت سنة 511هـ الموافق 1116م، وقد مر خلالها بتونس واستقر فيها مدة ينشر أفكاره، حيث وجد معارضة كبرى له، ثم انتقل إلى قسنطينة فبجاية لنشر أفكاره ومعتقداته الجديدة التي لم يجد فيها بداية حلوله بها معارضة كبيرة من علمائها هناك، وكان ذلك سنة 511هـ (ابن خلدون، 1988، صفحة 467، ج 1).

اكتشف ابن تومرت خلال مروره بتونس والجزائر حالة الجهل بالدين في تلك المناطق، والممارسات الخاطئة المنافية لأصول العقيدة، مما جعله يعقد العزم على البدء في نشر دعوته، والانطلاق نحو تصحيح المفاهيم والإصلاح الديني. وكان يعتقد أن هذه المرحلة هي الخطوة الأساسية الأولى التي يجب الانطلاق منها نحو إرساء مشروعه السياسي والإصلاحي. ورغم أن أفكاره ودعوته وجدت معارضة شديدة إلا أن ابن تومرت كان يتمتع بقدرة فائقة على الجدال ومناقشة العلماء وإفحامهم، مستفيدا من المنهج التأويلي والعقلي الذي درسه واستوعبه خلال تواجده في بغداد. ولم تجد أفكار ابن تومرت معارضة فقط من قبل العلماء والفقهاء في تونس والجزائر إلا أنه أيضا وجد معارضة كبيرة من حكام تلك المناطق، حيث رأوا فيه تهديدا لوجودهم ولسلطانهم، فعملوا على محاصرته والتضييق عليه، بل وصلت إلى محاولة اعتقاله وربما قتله، مثلما حدث له مع أمير بجاية الذي كان يرى في ابن تومرت أنه مصدر الفتنة داخل إمارته، وتهديدا لأركان سلطته، ورغم أن دعوة ابن تومرت قد لاقت معارضة من عدة جهات إلا أنها بدأت تنتشر في تلك المناطق، وبات له طلاب ومريدون يتبنون أفكاره، ويسعون إلى نشرها في تلك المناطق، الأمر الذي جعله أهم الشخصيات العلمية المؤثرة والبارزة في تلك المناطق (ابن خلدون، 1988، صفحة 467).

غير أن دعوة ابن تومرت ستشهد منعطفا جديدا ودينامية وفاعلية أسرع في الانتشار في مناطق المغرب الأوسط، عندما التقى بعبد المؤمن بن علي الذي يعد أحد أهم الشخصيات التي لعبت دورا محوريا كبيرا في الدعوة الموحدية، وكان الزعيم الثاني بعد مؤسسها ابن تومرت. وتذكر المصادر التاريخية أن عبد المؤمن التقى بابن تومرت عندما جاء من تلمسان إلى بجاية قاصدا الحج، وقد تأثر بأفكاره وأطروحاته، وأصبح أهم الطلاب المقربين له والداعين إلى أفكاره (الصنهاجي، 1971، الصفحات 16-20). ورغم اختلاف الروايات بين عدة مصادر تاريخية حول لقاء عبد المؤمن بابن تومرت إلا أن العلاقة بين الرجلين قد توطدت، وعرفت دعوة ابن تومرت حيوية جديدة في الانتشار، ولاقت أفكاره الجديدة رواجا كبيرا، وصل صداها إلى مسقط رأسه في المغرب الأقصى، وبات الناس يتحدثون عنه، ويتهافتون عليه من مناطق مختلفة ليتلقوا منه العلم. فقد كانت مرحلة محاربة الجهل والمعتقدات الخاطئة المتفشية في المنطقة هي المرحلة الأساسية الأولى من مسيرة الدعوة الموحدية والمشروع السياسي الموحدي (الصنهاجي، 1971، الصفحات 270-275).

ويمكن القول إن ابن تومرت كان يدرك أهمية نشر الأفكار، وتغيير العقول التي عششت فيها الخرافات والأساطير التي لا تمت للدين بأي صلة. لذلك وجد في هذه المناطق أرضا خصبة لنشر دعوته وأفكاره، مستخدما الحجج العقلية والنقلية أيضا في

Volume: 4 Issue: 2

عملية إقناع فكري، استخدم فيها المنهج التأويلي والمنهج العقلي في إسكات كل من يقف ضده من الفقهاء والعلماء الذين حرضوا السلطة المرابطية في مراكش ضده، واتهموه بأنه ينشر البدع، وألبوا عليه العامة، خصوصا عندما انتقل إلى مراكش عاصمة المرابطين، وبدأ ينشر أفكاره ويحارب حالة السفور والفساد المتفشي في المدينة. لم يكتف ابن تومرت بمحاربة فساد العامة فحسب، بل تجاوز إلى نقد عائلات السلطات المرابطية، حيث تذكر لنا المصادر التاريخية أنه انتقد بشكل كبير نساء عائلاتهم، وتهجم عليهن، بسبب سفورهن وعدم التزامهن باللباس الإسلامي الشرعي حسب رأيه. ولم يكتف ابن تومرت بذلك، بل عمد في التهجم مباشرة على علي بن تاشفين، ودخل معه في خلاف كبير، أزعج هذا الأخير إزعاجا كبيرا من أسلوب ابن تومرت المتشدد في عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اعتمدها في دعوته، لتغيير أفكار العامة، ونشر دعوته، ومواجهة السلطة المرابطية، واتهامها بالخروج عن الدين وعدم الالتزام به (ميراندا، 2004، الصفحات 53-54).

وبغض النظر عن صدق ابن تومرت في دعوته ووجاهة أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أن الرجل قد استطاع بأسلوبه هذا أن يبرز على الساحة العلمية والساحة السياسة كأحد أهم الشخصيات المؤثرة في العامة، ولها القدرة على محاججة العلماء، وكذلك على مواجهة حكام المرابطين، وضرب صورتهم ومصداقيتهم لدى الرأي العام في منطقة المغرب. وقد كان هذا الأسلوب المتشدد لدى ابن تومرت التأثير في توسيع قاعدته الشعبية التي كان يحتاجها لبناء مشروعه السياسي في المرحلة اللاحقة. ومما يذكره أبو بكر علي الصنهاجي المعروف بالبيدق أن علي بن تاشفين قد ضاق ذرعا بأسلوب ابن تومرت، وفكر في اعتقاله وسجنه، لأنه كان يرى فيه خطرا على دولته وسببا لخرابها، وفعلا اعتقله لمدة قصيرة غير أن بعض الوزراء أشاروا عليه أن يطلق سراحه حتى لا تتهم السلطة المرابطية الإسلامية بأنها تحارب علماء الدين، ويتضح من خلال الحوار الذي دار بين علي بن تاشفين وبين ابن تومرت بعد إطلاق سراحه، حيث قال للأمير إنه لا يجب أن يسجن عالما مسلما، فكن رد الأمير أن هذا العالم حسب العلماء قد يكون سببا في خراب مملكة المرابطين. وهذا الكلام يعكس نظرة الأمير المرابطي في الدعوة الموحدية التي استشعر أنها تهدد أركان دولته، وقد تكون سببا في خرابها (الصنهاجي، 1971، الصفحات 28-30).

ويبدو أن ابن تومرت أدرك أن بقاءه في مراكش سيعرضه إلى خطر السلطة المرابطية وإلى اعتقاله، وبالتالي تحديد نشاطه الدعوي، أو ربما القضاء على مشروعه السياسي الذي يطمح أن يشكله بديلا لدولة المرابطين. لذلك قرر مغادرة المدينة إلى منطقة الأطلس، مرورا بأغمات التي تيقن أنه لن يكون في مأمن من عيون المرابطين، لذلك واصل طريقه للبحث عن مكان آمن يجد فيه الدعم والمقبولية والمناصرة لدعوته، فعبر منطقة سوس إلى أن استقر به المقام سنة 515 هـ الموافق ل1221 م في منطقة إيجليز، حيث تتواجد قبيلته هرغة التي رأت في ابنها محمد بن تومرت مفخرة للقبيلة وشرفا لها، لما يتمتع به من علم وقوة في الحجة. ومع مجيئه إلى إيجليز ستشهد دعوة ابن تومرت تطورا جديدا على المستوى المعرفي والممارسة السياسية، فقد أقام ابن تومرت في مغارة، سميت بعد ذلك بـــ" الغار المقدس" الذي سيدعي فيه ابن تومرت المهدوية، ويكتب فيها كتابه " أعز ما أطلب"، والذي يمثل زبدة أفكار ابن تومرت التي عاش طوال حياته يدعو إليها، وينشرها في مملكة المرابطين (ميراندا، 2004، الصفحات 60-62).

4- تطور دعوة ابن تومرت وادعاؤه المهداوية:

ذكرنا أن ابن تومرت منذ عودته من الشرق، كان قد وضع مراحل لدعوته، بدأ فيها بتصحيح العقائد الدينية الفاسدة التي انتشرت في الجرافية المغاربية التي تمتد من طرابلس الليبية إلى المغرب الأقصى، كما عمل ابن تومرت في حجاجه لكثير من العلماء على تصحيح المفاهيم ونسف المنهج النقلي الذي كان سائدا في عهد المرابطين، مستفيدا بذلك من المنهج التأويلي العقلي الذي تعلمه خلال رحلته في الشرق، واستطاع بفضله أن يتفوق على أغلب العلماء في مناظراته، مما جعله أهم شخصية علمية في الساحة المغاربية، وأصبح له طلاب كثر في كافة المدن المغربية. ويمكن القول إن دعوة ابن تومرت بدأت بشكل محتشم، اقتصرت على محاربة العقائد الفاسدة المنتشرة بين عامة الناس، لتتطور فيما بعد إلى مرحلة تصحيح المفاهيم، مما حول دعوته إلى حركة

إصلاح ديني واسعة، سيكون لها الأثر الكبير في بناء المشروع السياسي الموحدي في المرحلة اللاحقة. كما يمكن القول إن مرحلة استقرار ابن تومرت في ايجليز شكل تطورا جديدا في مسار دعوته وحركته ومشروعه، فقد ادعى في هذه المنطقة أنه المهدي المنتظر، وصبغ على أفكاره بعدا قداسيا يتصف بالعصمة، وسيتضح ذلك من خلال كتابه بعنوان" أعز ما أطلب"، وهو كتاب وضع فيه ابن تومرت أهم مبادئ مشروع حركته الدينية الإصلاحية، حتى بات هذا الكتاب منهجا أساسيا وتعاليما دينية وسياسية لمن سيخلفونه من بعده (محمد بن تومرت، 1997، الصفحات 399-402).

ونحن كباحثين من حقنا أن نطرح جملة من التساؤلات لفهم حقيقة مسألة ادعاء ابن تومرت المهداوية، ولعل اهم سؤال يتمحور حول الأسباب التي دفعت ابن تومرت إلى ادعاء المهداوية؟ ثانيا على أي أساس ديني ارتكز ابن تومرت ليقنع الناس بأنه المهدي المنتظر؟ ثالثا ماهي الخلفيات الدينية والسياسية التي كانت تحرك ابن تومرت في ادعائه المهداوية؟

أدرك ابن تومرت بعد دخوله في تصادم مع حكام المرابطين أن دعوته لن يكتب لها الانتشار والتوسع والتمكين السياسي والشعبي إلا بعاملين أساسيين: الأول هو اختيار مكان استراتيجي آمن بعيدا عن نفوذ المرابطين، وتحظى فيه دعوته وأفكاره بالتأييد الشعبي الواسع، حتى يمارس فيه أفكاره ومنهجه، ويجعله قاعدة انطلاق لدعوته ومشروعه السياسي في المستقبل، وقد وصل إلى اقتناع بضرورة العودة إلى مسقط رأسه إيجليز، حيث توجد عشيرته التي استقبلته استقبالا حارا، وباتت تفتخر به لعلمه ولبروزه كأهم زعيم ديني من أبناء القبيلة الأمازيغية التي نجح ابن تومرت بمعرفته الجيدة بلغتها أن يؤثر فيها بأفكاره، ويزرع فيهم فكرة الاستقلالية والتحرر من هيمنة الحكم المرابطي وانحرافه عن الدين وظلمه لقبيلته وتهميشهم، وبذلك يكون ابن تومرت قد أثار العصبية القبلية، وربطها بالوازع الديني في قبيلته من أجل تجذير أفكاره ومشروعه في أبناء عشيرته وقبيلته والمنطقة بشكل عام. أما العامل الثاني فهو ادعاؤه المهداوية، ذلك أنه عندما عجز عن نشر أفكاره ومنهجه في المناطق التي هي خاضعة لسلطة المرابطين، ووجد معارضة كبيرة من قبل عدة علماء وفقهاء وعدد كبير من عامة الناس، رأى أن إدعاء المهداوية هو الوسيلة الوحيدة المناسبة لتحقيق مايصبو إليه وللتمكين لحركته الإصلاحية الدينية ولمشروعه السياسي على حد السواء، مما يجعل أفكاره وتعاليمه معصومة لا تحريف فيها لأنها مؤيدة ومنزلة من الخالق، وواجب على الناس الإيمان بها والتصديق بها (ميراندا، 2004، الصفحات 61-62).

5- المهداوية عند ابن تومرت وخلفياتها السياسية:

لقد تحدث ابن تومرت في كتابه أعز ما أطلب عن مسألة المهدي الذي يظهر في وقت تشيع فيه الفواحش والرذيلة، وينتشر فيه الجور من الحكام الظالمين وكثرة دعاة الفتن والدجل، فيظهر المهدي ليطهر الأرض من الدنس والظلم، وينشر العدل والفضيلة بين الناس في كل مكان، وأن الإيمان به أمر واجب من الدين، ومن يكذبه يعد كافرا، وأن المهدي سيبلغ سلطانه وحكمه كل أصقاع الأرض، وأن ملكه سيدوم إلى يوم القيامة (ابن القطان، د.ت، الصفحات 74-76). نلاحظ أن تومرت يقر من حيث لا يشعر بأنه فشل في نشر دعوته في مرحلة ما قبل ادعائه المهداوية، فهو يشير إلى أن المهدي يظهر في وقت وفي مكان تكثر فيهما الفواحش والرذيلة، ويكثر فيه الظلم والجور، وهنا إشارة إلى ظلم دولة المرابطين، كما أشار ابن تومرت إلى ضرورة الإيمان بالمهدي، وأن معارضته في الحقيقة هي كفر جلي وخروج عن الدين، مما يجعل ابن تومرت يعتبر أن كل معارضة لدعوته أو رفضها هو خروج عن الدين بالضرورة، وهي محاولة منه لكي ينشر دعوته وأفكاره، ويصبغها بطابع قداسي كهنوتي، لا يقبل النقاش والجدال. وقد استغل ابن تومرت ادعاء المهداوية حالة الجهل وضعف الوعي الديني في المنطقة التي استقر بها وجعلها منطلقا لدعوته، واعتمد فيها على قبيلته في تحقيق مشروعه السياسي.

من جهة أخرى أراد ابن تومرت أن يضفي مصداقيته على مهداويته، فقد اختلق من عنده أحاديث نسبها إلى النبي عليه السلام، لم تثبت صحتها، ولم يرد لها أي سند حقيقي، فقد ذكر في كتابه أعز ما أطلب حديثا نسبه إلى النبي حول محاربة المرابطين يقول فيه: "من يتبعهم ليس مني" وكذلك " يجب الجهاد فيهم كما الجهاد في النصارى واليهود والمجوس" (محمد بن تومرت،

Volume: 4 Issue: 2

1997، صفحة 400). أسلوب اختلاق الأحاديث النبوية والكذب على النبي عليه السلام اعتمده ابن تومرت، بقصد إضفاء قداسة وعصمة لأفكاره، وإلزام العامة القبول به دون نقاش أو معارضة، وكذلك مثَّل هذا أسلوبا لسحب البساط من المرابطين، وإقناع الناس بظلمهم وبجورهم، وبضرورة محاربتهم مثلما ورد في الحديث المختلق الذي ذكره آنفا. وعندما ندقق نجد أن هذه الأحاديث لا أصل لها ولا سند لها، فهي من اختلاق ابن تومرت لكي يقنع عامة الناس بأنه المهدي المنتظر، والحال أن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في ابن تومرت: " وممن ادعى أنه المهدي ابن تومرت الذي خرج أيضا في بلاد المغرب وسمى أصحابه بالموحدين، وكان يقال له في خطبهم الإمام المعصوم والمهدي المعلوم، وقد علم أنه ليس هو الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم" (ابن تيمية، 1986، صفحة 213 ج4).

من جهة أخرى تعرض ابن تومرت بعد ادعائه للمهداوية إلى مشكلة أخرى، وهي أن الأحاديث النبوية الصحيحة التي تحدثت عن المهدي المنتظر اسمه واسم أبيه يوافقان اسم النبي عليه السلام واسم أبيه أي محمد بن عبد الله. ومن هنا ادعى أن اسم أبيه عبد الله وأن جده هو تومرت، وذلك ليجد لنفسه تبريرا لمهداويته. والحال أن ابن تومرت عرف منذ صغره باسم ابن تومرت بن وكليد وليس باسم ابن عبد الله. وقد اختلفت الروايات في معنى تومرت، وقد أطلق ابن خلدون على والد ابن تومرت اسم الشيخ الذي يقابله في اللغة الأمازيغية أمغار، ويقول ابن القطان إن تومرت هذا كان فقيرا ضعيف الحال إلى أن تزوج مرأة مسنة من مدشر بني يوسف التابع لقبيلة مسكالة الموجودة بسوس، حيث قدمت له عائلة العروس هدايا كثيرة، أصبح غنيا بفضلها، ويضيف أنه قضى كل حياته بإيجليز هرغة حيث توفي دون أن يلتحق بابنه الذي استقر بتنملل (ميراندا، 2004، صفحة 32).

وبغض النظر عن الخوض في مسألة مصداقية ابن تومرت من عدمها في ادعائه المهداوية إلا ما يجب الإشارة إليه أن المهدوية أسلوب استخدمه ابن تومرت لتثبيت دعوته ونشرها بين الناس ويؤسس له قاعدة شعبية واسعة تساعده على الإطاحة بالدولة المرابطية، وتأسيس المشروع السياسي الموحدي انطلاقا من مسقط رأسه. حيث سمح الحماس الذي تعامل به مع قضية وميل أهل بلاد المغرب الطبيعي لتبجيل الصالحين والتسليم بولايتهم، بإنجاح مخططه، خصوصا وان حملته بلغت ذروة نشاطها خلال شهر رمضان، حيث يقوى الإيمان وتزداد ممارسة المشاعر الدينية. وخلال شهر رمضان من سنة 515 هـ، وبعد إحدى خطبه البليغة والتي عاد فيها للحديث عن المهدي المنتظر وصفاته، صاح أصحابه العشرة ومعهم بقية الحضور" ياسيدي هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي". وقاموا مباشرة بالمناداة به مهديا (ميراندا، 2004، الصفحات 62-63).

ويتضح من ذلك أن شعبية المهدي بن تومرت قد توسعت نتيجة الجهل لدى عامة الناس، وضعف وعيهم الديني، الأمر الذي ساعده أن يسوق بطريقة ذكية وماكرة فكرة المهداوية، ويقنعهم بأنه هو المهدي المنتظر، مما سيمنحه مشروعية شعبية ودينية لدى عامة الناس، وينتقل إلى تنفيذ أفكاره، وتطبيق تعاليمه على أنها مقدسة لا تقبل الجدال، وأن كل من يرفضها فقد رفض أصلا من أصول الدين. لذلك بدأت دعوته تنتشر بشكل واسع في مناطق عديدة من المغرب، لتبدأ مرحلة التمكين السياسي وتأسيس الكيان السياسي الموحدي، غير أن هذه المرحلة لن تتحقق إلا بسحب بساط المشروعية السياسية لدولة المرابطين واتهامهم بالظلم والجور، بعد أن نجح في سحب بساط مشروعيتهم الدينية باتهامهم بالخروج عن الدين، وبإقناع الناس بأنه المهدي المنتظر الذي سيحكم الأرض، وينشر فيها العدل والخير والفضيلة.

6- ابن تومرت ومرحلة الانتقال إلى تشكيل الكيان السياسي:

ذكرنا سابقا أن ابن تومرت انتهج استراتيجية تدريجية تقوم على عدة مراحل من أجل تشكيل مشروعه السياسي، حيث كانت أولى المراحل هي نشر أفكاره وتعاليمه ومحاربة الأفكار والمعتقدات الدينية الخاطئة، وقد استغرقت هذه المرحلة مدة طويلة، استطاع من خلالها أن يتحول فيها ابن تومرت إلى أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الساحة الدينية و العلمية والفكرية. أما المرحلة الثانية فهي انتقال ابن تومرت إلى سحب المشروعية الدينية من المرابطين واعتبارهم خارجين عن الدين، ولم يعودوا يمثلون الدين

الإسلامي. ورغم أن ابن تومرت قد فشل في عدة مناطق في نشر أفكاره والتأثير عليها، وذلك بسبب المواجهة الكبيرة التي تعرض إليها من قبل علماء المغرب ومن المرابطين، إلا أن ابن تومرت نجح في مناطق مسقط رأسه أن يشكل نواة أولى لكيان سياسي شبيه بإمارة، ليطبق فيها مشروعه الفكري والديني والسياسي في هرغة، وقد نجح في إقناع قبيلته وبعض القبائل الموجودة بأنه المهدي المنتظر، الأمر الذي جعل من أفكاره وتعاليمه ومعتقداته أمرا مقدسا لا يمكن مناقشتها، واستطاع من خلال ادعاء المهداوية التحكم في القرار السياسي في هذه المناطق التي جعلها قاعدة لمواجهة المرابطين، والسعي إلى إسقاطهم ليحل محلهم الموحدون. لقد بدأت هذه المرحلة بإعلان المواجهة العسكرية ضد المرابطين ومقاومتهم والقضاء على وجودهم على الأقل في المناطق التي يتواجد فيها ابن تومرت نفسه حتى يؤمن منطقته من أي سقوط أو استيلاء من قبل المرابطين الذين أعلن ابن تومرت تمرده ضدهم، وبدأت المواجهات بين الطرفين تأخذ مسارا تصاعديا، وأكثر حدة وعنف، وقد كانت عملية انتقال ابن تومرت إلى مرحلة المواجه العسكرية ضد المرابطين، وذلك بقصد سحب المشروعية السياسية منهم بعد أن نجح إلى حد كبير في سحب المشروعية الدينية بإدعائه للمهداوية وباتهامهم بالانحراف عن الدين، الأمر الذي ساعده على توسيع دائرة نفوذه في المنطقة، وكسب مناصرة عدة قبائل بربرية في عدة مناطق من المغرب (ابن القطان، د.ت، صفحة 86).

اعتمد ابن تومرت في مواجهته العسكرية للمرابطين على ثلاث استراتيجيات: تمثلت الأولى في استراتيجية القضاء على التواجد المرابطي في منطقة مسقط رأسه ليجعلها منطقة آمنة، يمكن التحرك فيها بشكل أفضل، وتعطيه القدرة على جعلها نقطة انطلاق للمواجهة، لذلك بذل قصارى جهده في تنظيم حملات مباغتة للتواجد المرابطي في تلك المناطق لإضعاف وجودهم والقضاء عليهم، ورغم أنه وجد مقاومة كبيرة من المرابطين إلا أنه نجح في توجيه ضربات قوية لهم وإلحاق الهزيمة بهم في مناطق سوس وهرغة وإيجليز، ويرجع ذلك إلا أن تلك المناطق كانت رافضة للسلطة المرابطية، وتأثرت بدعوة ابن تومرت وبأفكاره (ابن عذاري، 1983، صفحة 44). أما الاستراتيجية الثانية فقد تمثلت في توسيع النفوذ داخل القبائل والسعي نحو كسب مناصرتهم له، ذلك أن أغلب تلك القبائل هي قبائل بربرية، و كان ابن تومرت يعرف كيف يتواصل معهم، ويخاطبهم باللغة الامازيغية التي كان يتقنها بشكل جيدا، واستطاع أن يجلب عدة قبائل إلى صفه، وتوجيههم نحو محاربة السلطة المرابطية. وقد ساعدته هذه الاستراتيجية على التوسع في مناطق نفوذه لتصل إلى عمق الأراضي التي تخضع بشكل فعلي للمرابطين. وكان ابن تومرت يدرك أهمية القبائل في خريطة التوازنات وفي خريطة الصراع العسكري ضد المرابطين، لذلك قام بمراسلة عدة قبائل، وعرف كيف يقنع عددا منهم للالتحاق به. وقد استفاد ابن تومرت من جملة الأخطاء والانتهاكات والممارسات التي مارسها المرابطون ضد هذه القبائل التي أعلنت تمردها ضدهم، والوقوف إلى صف الموحدين (ابن القطان، د.ت، صفحة 86). وتتمثل الاستراتيجية الثالثة لابن تومرت في مواجهته للمرابطين في انتهاج سياسة الصرامة وعدم التسامح مع كل من هو مشكوك فيه، ويعتقد أنه لا يقبل بأفكاره أو يعمل لصالح المرابطين لضرب دعوته ومشروعه في منطقة إيجليز والمناطق المجاورة لها، ورغم أن هناك اختلافات في المصادر التاريخية حول حقيقة أسلوب العنف الذي مارسه الموحدون في عدة مناطق إلا أن هذه المصادر تشير إلى عمليات قتل جماعي مورست ضد عدة مناطق منها تنملل أثناء سيطرة الموحدين عليها (زمامة، 1979، صفحة 112).

لقد مثلت هذه الاستراتيجية أهم العوامل التي ساعدت على تمدد ابن تومرت ودعوته الدينية والسياسية في مناطق شاسعة في الأطلس الكبير، وتراجع للنفوذ المرابطي عليها، خصوصا بعد أن اتخذ من تنملل قاعدة وعاصمة لمشروعه السياسي الذي بدأ يحقق نجاحات كبيرة.

7- ابن تومرت وتطور مجريات الصراع وانعكاساته على مشروعه السياسي:

أمام هذه التطورات الحاصلة، وتوسع نفوذ ابن تومرت ودعوته في عدة مناطق، وانضمام عدة قبائل له، بدأ المرابطون يشعرون بقلق كبير، لذلك انتقلوا إلى استراتيجية معاقبة كل قبيلة تعلن ولاءها لابن تومرت، فبدؤوا بالهجوم على قبيلة هنتاتة التي

Volume: 4 Issue: 2

تعد من أكبر القبائل الموجودة في المنطقة، وألحقوا بها أذى كبيرا، وكان الهدف من ذلك هو ردع بقية القبائل وتخويفهم من مسألة الولاء لابن تومرت. وكانت استراتيجية المرابطين هي محاصرة ابن تومرت ودعوته وعزله في منطقة صغيرة، لكي يسهل محاصرته وضربه بعد أن ينقطع عليه الدعم والولاء من بقية القبائل الأخرى. غير أن هذه الاستراتيجية المرابطية لم تنجح، ولم يتحقق لهم مايريدونه، فقد نجح ابن تومرت في تقديم المساعدة لقبيلة هنتاتة، وألحقوا خسائر فادحة في صفوف جيش المرابطين، الأمر الذي وطد العلاقة بين قبيلة هنتاتة وابن تومرت، وكذلك تشجعت قبائل أخرى للالتحاق بهذا الحلف مع ابن تومرت ضد المرابطين. كما تولدت قناعة عند ابن تومرت والموحدين عموما بأهمية كسب القبائل في معركتهم ضد المرابطين الذي عمدوا إلى أسلوب زرع الدسائس به، وتوظيف بعض العناصر الداخلية في القبائل الموالية لابن تومرت لقتله، ورغم فشل هذه الخطة إلا أن ابن تومرت ظل متيقظا من هذه المحاولات، بل قام بتصفية كل من يحاول التآمر عليه وعلى دعوته. (ميراندا، 2004، الصفحات 68-69).

من جهة أخرى كان ابن تومرت يدرك أن دعوته تحتاج إلى قاعدة انطلاق لتنضيج مشروعه السياسي في الصراع ضد السلطة المرابطية التي عملت على محاصرته، وبذلت كل ما في وسعه للتخلص منه وتصفيته، واستئصال دعوته، خصوصا في منطقة الأطلس الكبير، لذلك كان لا بد للمشروع الموحدي أن يتخذ عاصمة لدعوته ولمشروع دولته الناشئة، وبعد تفكير وبحث وتقييم وصل ابن تومرت إلى ضرورة السيطرة على مدينة تنملل وجعلها عاصمة له، وذلك بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وكذلك بسبب ولاء أغلب القبائل الموجودة هناك لدعوته. وقد تمكن ابن تومرت في سنة 519هـ الموافق 1125 من السيطرة على تنملل بالقوة، واتخذها عاصمة له، ونظم فيها إدارته وكل عملياته العسكرية، وأصبحت هذه المدينة هي النواة الأولى للإمارة الموحدية التي ستنطلق بعد هذا التاريخ إلى التوغل في بقية المناطق لإسقاط الدولة المرابطية (زمامة، 1979، الصفحات 96-98).

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن ابن تومرت ومناصريه قد مارسوا عنفا كبيرا ضد أهالي تنملل للسيطرة عليها، ومنها القيام بعمليات قتل جماعي، وافتكاك أراضي ممن رفضوا انتقال ابن تومرت إلى تنملل، وقد مارس الموحدون هذا السلوك العنيف ضد معارضيه في تنملل حتى يبعث برسالة إلى كل من يعارضه في المنطقة، أو يحاول أن يتعامل مع السلطة المرابطية ضده وضد مشروعه السياسي (ابن القطان، د.ت، الصفحات 96-98). وبغض النظر عن اختلاف المصادر التاريخية حول تصرف ابن تومرت مع أهل تنملل فإن هذه المدينة كانت بالنسبة إلى ابن تومرت المنطقة الأنسب من حيث موقعها الاستراتيجي لمواجهة الهجومات المرابطية، كما أن هذه المنطقة توجد فيها قبائل غاضبة من المرابطين، وكان على ابن تومرت أن يستغل مثل هذه المشاعر الغاضبة وتوظيفها لصالح مشروعه السياسي، وتحويلها إلى قوة عسكرية لمواجهة النظام السياسي في مراكش، كما استغل ابن تومرت حالة الجهل والأمية لتلك القبائل الموجودة في تنملل وماجاورها، مما يسهل عليه قيادتها وتوجيهها ودمغجتها بالطريقة التي يريد، خصوصا وأن ابن تومرت يتمتع بذكاء حاد ومستوعب لعلم المنطق والكلام، مما يجعله بمثابة المرشد والقائد والعالم الذي تنقاد إليه كل القبائل. من جهة أخرى كان اختيار ابن تومرت لتنملل بسبب موقعها الجغرافي الصعب الموجود على جبال وعرة وصعبة، يصعب على الخصم المرابطي أن يصل إليها، وقد زاد ابن تومرت في إضافة تحصينات عليها، وبنى سورين، وكذلك بنى قلعة مراقبة لرصد تحركات أي هجوم محتمل ضد المدينة (زمامة، 1979، الصفحات 121-123).

بعد أن استقر الأمر لابن تومرت ودعوته في مدينة تنملل وماجاورها، قام بتأسيس إمارته التي ستنطلق فيما بعد إلى التوسع والسيطرة على مناطق واسعة للدولة المرابطية، وانطلق المشروع الموحدي الجديد يطرح نفسه بديلا للمرابطين، ويتوسع داخل مناطق شاسعة، وبدأت هذه الدولة تبسط نفوذها في تلك المناطق معتمدة مرة على سياسة الاقناع، مرة أخرى على سياسة القمع. وأمام هذه التطورات وتقدم مشروع الإمارة الموحدية، وتوسع نفوذها، حاول المرابطون أن يحاصر إمارة الموحدين الناشئة اقتصاديا وعسكريا، إلا أن هذه السياسة لم توقف المد الموحدي من التوسع والسيطرة على مناطق جديدة. ولعل من أهم أسباب عدم تحقيق المرابطين نجاحات كبيرة ضد الموحدين يعود إلى انشغالاتهم بالأحداث التي جرت في الأندلس، ومواجهة الصليبيين الذين كانوا يتربصون بالسيطرة على مدن الاندلس. وقد استغل ابن تومرت والموحدون هذه الانشغالات، وحاولوا التوسع بشكل أسرع في

عمق الأراضي المرابطية، والتمركز في عدة مناطق استراتيجية، ساعدتهم فيما بعد على محاصرة المرابطين، خصوصا بعد هزيمتهم في الأندلس أمام ألفونسو سنة 1129م في اشبيلية، حيث عرف ابن تومرت كيف يستغل هذه الهزيمة المرابطية ليطرح نفسه بديلا سياسيا للمرابطين ضد أعداء الإسلام، وصار يرسخ لدى عامة الناس في تلك المناطق بأن المرابطين انهزموا أمام الصليبيين في الأندلس لأنهم ابتعدوا عن الدين، ولم يعودوا مؤهلين لحماية الإسلام والمسلمين.

في المقابل ورغم هذه النجاحات التي حققها ابن تومرت وكيانه السياسي الناشئ من التوسع والنفوذ داخل الأراضي المرابطية، إلا أن ابن تومرت مازال في هذه المرحلة لم يحقق النتائج المرجوة التي تؤهله لكي ينهي الدولة المرابطية، لأنه مازال يواجه معارضة من عدة قبائل مازالت لم تقتنع بدعوته، وكانت تقدم الولاء والدعم للمرابطين الذين يرون فيهم الدولة الإسلامية الشرعية التي لا ينبغي الخروج عنها. لذلك وضع ابن تومرت نصب عينيه هدف سحب المشروعية الكاملة من المرابطين وذلك عبر طريقتين: الأولى تصفية كل من يقول بشرعية الدولة المرابطية، حيث أمر ابن تومرت بقتل الكثير ممن عارضوه، ورغم أنه سيطر على عدة مناطق، إلا انه خلق حالة استياء كبيرة لدى العديد من القبائل التي رأت فيه إجراما وظلما مخالفا لروح المبادئ والقيم الإسلامية التي ترتكز عليها دعوة ابن تومرت، أما الطريقة الثانية فقد تمثلت في التركيز على الاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين، وذلك من خلال تكثيف غاراته على المدينة وتحفيز مناصريه ووعدهم بالإغداق عليهم بالغنائم الكثيرة إذا نجحوا في الاستيلاء على عاصمة المرابطين الاستراتيجية. وربالرغم من أن ابن تومرت نجح في تصفية كل من يتحالف مع المرابطين إلا أن سقوط مراكش ظل عقبة كأداء أمامه، رغم كل المحاولات المتواصلة للاستيلاء عليها، غير أنه استطاع أن يسيطر على عدة مناطق قريبة منها مثل حصن تافركونت في منطقة كيك غيفرة، أمجدار وأغمات، الأمر الذي سيسهل عمليات الهجوم على مراكش التي واصل الموحدون مرات عديدة للسيطرة عليها مدة استمرت حتى بعد وفاة ابن تومرت الذي لم يعش لحظة سيطرة الموحدين على عاصمة المرابطين (ميراندا، 2004، الصفحات 81-82).

Volume: 4 Issue: 2

المبحث الثاني: موت ابن تومرت وملامح مرحلة التأسيس الثانية مع عبد المؤمن بن علي:

1- موت ابن تومرت وانعكاساته على المشروع السياسي الموحدي:

مثلت حادثة وفاة ابن تومرت أكبر تحد للمشروع السياسي الموحدي الذي نجح ابن تومرت في توسيعه من خلال فكرة المهداوية ومسألة المهدي الذي يأتي آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا بعد أن املات جورا. لكنه وقع العكس فابن تومرت المهدي توفي، ولم يحقق العدل والنصر على الظلم والظالمين. وقد وجد أتباعه خصوصا من المقربين منه سوى إخفاء خبر وفاته على كل أتباعه من المناصرين العاديين، لأن الإعلان عن خبر الوفاة سيشكل ضربة قاسمة لمستقبل المشروع السياسي الموحدي، الأمر الذي استغرق فترة ثلاث سنوات حتى تم الإعلان عنه فيما بعد عن طريق خليفته عبد المؤمن بن علي الذي أصبح الرجل الأول والشخصية الأبرز في قيادة المشروع السياسي الموحدي الناشئ. في هذه الأثناء عاشت الدعوة الموحدية حالة من القلق وعدم وضوح في الرؤية، بسبب الغياب المفاجئ لابن تومرت، وبسبب عدم ظهوره للناس ولأتباعه، مما أثار شكوكا كثيرة، وباتت فكرة المهداوية ومصداقيتها تنهار شيئا فشيئا لدى شريحة من الأتباع، فهموا أن ابن تومرت لم يكن هو المهدي، وإنما كان يستخدم المهداوية وعصمة المهدي لكي يقنع الناس بدعوته وبأفكاره، ولكي يضفي عليها نوعا من القداسة، يستوجب على كل مسلم القول بها، و لا يمكن المس بها أو التعدي عليها. ولئن كان ابن تومرت قد نجح أثناء حياته في إقناع عدد كبير من الناس بمهداويته، إما بسبب جهلهم بالدين، أو عن طريق قدرته على الإقناع، خصوصا وأنه كان يتمتع بقوة حجاجية كبيرة،وكذلك إلمامه الواسع باللغة العربية واللغة الأمازيغية التي كان يتحدث بها أغلب سكان تلك المناطق، أو بسبب القوة والإكراه للجميع على القبول بمهداويته التي لاقت معارضة من عدة علماء في الدين، خاصة ممن يناصرون الدولة المرابطية، وقد تمت تصفيتهم أو إبعادهم عن المنطقة (ابن القطان، د.ت، الصفحات 95-98).

يجب أن نشير هنا إلى أن حدث موت ابن تومرت إضافة إلى أنه أحدث زلزالا هائلا في مصداقية المهدي، فقد خلق أيضا أزمة قيادة دينية وسياسية في المشروع السياسي الموحدي، لذلك تكتم المقربون من المهدي ومنهم عبد المؤمن بن علي عن خبر وفاة ابن تومرت، بل إنه تم دفنه سرا في الليل، حتى لا يعلم أحد بالخبر، وليبق قبره مخفيا مدة ثلاث سنوات ثم تم بعد ذلك الإعلان عن خبر الوفاة، وبعد أن صارت مسألة مرض المهدي غير مقنعة، وتسرب هذا الخبر بين الناس (الصنهاجي أ.، 1975، الصفحات 40-42). وبغض النظر عن مصداقية ابن تومرت من عدمها، إلا أن هذا الأخير كان يتصف بشخصية متميزة، وكان يملك أفكارا ومشروعا فكريا وسياسيا وإصلاحيا مهما، كما كان شخصية مؤثرة قادرة على إقناع الناس وشدهم إليه، و كان أيضا شخصية متزنة وغير متهورة، إضافة إلى نباهته وذكائه وقدرته على الجدال بشكل عقلي ومنطقي. مثل هذه الشخصية الآن تغيب عن قيادة المشروع السياسي الموحدي، وتترك المقربين إليه في فراغ كبير وفي وضع حساس، يحتاج إلى التصرف مع مسألة موته بحكمة وبعقلانية و بشكل ذكي حتى لا يتصدع المشروع السياسي وتنهار أسسه، لذلك كان تقدير هذا الأمر حاضرا في أذهان أقرب المقربين إلى ابن تومرت وفي مقدمتهم عبد المؤمن الذي سيتولى القيادة في المرحلة اللاحقة، كما كان موت ابن تومرت تحولا كبيرا في خريطة الصراع مع المرابطين ومع بقية القبائل المناصرة لهم، الأمر الذي يستوجب عدم الإعلان عن وفاته حتى لاتعطى الفرصة إلى الخصم السياسي الأول المرابطين لتوجيه ضربة كبيرة للموحدين، وخلق فوضى داخل صفهم، وكذلك كشف زيف مزاعم المهداوية التي ادعاها ابن تومرت، واستخدمها في معركته لسحب المشروعية الدينية والسياسية من المرابطين (الصنهاجي ا.، 1971، الصفحات 40-43).

2- عبد المؤمن بن علي ودوره في مواجهة التحديات و تجاوز أزمة المشروع السياسي الموحدي:

رغم اختلاف المصادر التاريخية حول مسألة مرض ابن تومرت ووفاته إلا أنه يتضح من خلال بعض المصادر التاريخية أن الوفاة قد فاجأت ابن تومرت، ولم تمهله حتى يعين خليفة له لقيادة مشروع دعوته الدينية والسياسية، فقد كان في ذهن الكثير من

أتباعه أن ابن تومرت المهدي لن يموت حتى تتحقق كل شروط المهداوية، غير أن ذلك لم يقع منه أي شيء، وتوفي المهدي، ولم يعين خليفة له، وترك حالة قلق وغموض كبيرين يهددان مستقبل المشروع السياسي الموحدي، وكان هذا الأمر يمثل أحد التحديات الكبرى التي يتوجب على بقية القيادات الموحدية، خصوصا المقربة من ابن تومرت أن تتحرك بسرعة نحو تدارك الأمر، وإنهاء حالة الغموض والقلق، لأن عامل الزمن ليس في صالحهم، وكذلك أعداء المشروع الموحدي يتبرصون بهم، وينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض عليهم. وكان عبد المؤمن أحد أبرز الشخصيات التي عاشت مع ابن تومرت منذ بداية عودته من الشرق إلى شمال إفريقيا، كما كان عبد المؤمن أمين سر ابن تومرت وأكثر الشخصيات تأثيرا في الدعوى الموحدية بعده. لذلك فقد كان الشخصية المرشحة أكثر لخلافة ابن تومرت، واستلام قيادة المشروع السياسي الموحدي. في مقابل ذلك نجد أن بعض المؤرخين المحسوبين على السلطة الموحدية مثل عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب يذكر أن ابن تومرت قبل وفاته قد عين عبد المؤمن خليفة له عندما أدرك أن أجله قد حان، ويذكر أن ابن تومرت قد صرح في خطبه أن وريثته هو عبد المؤمن الذي كان يعتقد أنه لن يخب أمله في الاستمرار بالدعوة الموحدية (ميراندا، 2004، الصفحات 82-83).

وبغض النظر عن مدى اتفاق المصادر التاريخية أو اختلافها حول مسألة تعيين عبد المؤمن خليفة للمهدي، يمكن القول إن عملية التعيين قد شابها غموض وشك كبيرين في حقيقة الأمر، وتحتاج إلى شيء من التحري والتدقيق والبحث في الوثائق الحقيقية التي تتصل بتلك الفترة، وقد تكشف لنا عن معلومات حول ملابسات موت ابن تومرت وعن مسألة تعيينه لعبد المؤمن. وقد تحدث ابن خلدون في كتابه العبر عن مسألة مبايعة الشيخ أبي حفص عمر ينتي لعبد المؤمن خليفة لابن تومرت (ابن خلدون، 1988، الصفحات 470-474). وقد كان أبو حفص عمر أحد أهم الشخصيات المقربة من ابن تومرت، ثم بعد ذلك أصبح الرجل الثاني النافذ في السلطة الموحدية بعد عبد المؤمن. مما يجعلنا نتساءل هل وقعت صفقة بين عبد المؤمن وأبي حفص للاستيلاء على مقاليد الأمور في المشروع الموحدي أم ماذا؟. لكن ما يمكن أن نخلص إليه هو أن تعيين عبد المؤمن خليفة مثل أولى الخطوات الرئيسية لتجاوز أهم تحد واجه المشروع السياسي الموحدي بعد غياب مؤسسه ابن تومرت، وقد نجح عبد المؤمن في وضع لبنات تأسيس جديدة للمشروع الموحدي، ورسم له استراتيجيات وأولويات تختلف عن مرحلة التأسيس الأولى التي ولدت في ظروف تاريخية مختلفة وفي ظل تحديات سياسية واجتماعية متشابكة (ابن القطان، د.ت، صفحة 130).

غير أن عبد المؤمن رغم نجاحه في الحصول على خلافة ابن تومرت إلا أنه سيواجه تحديا آخر ليس بالهين، ويتمثل في رفض قبيلة المصامدة له كخليفة للمهدي، على اعتبار أن هذا الأخير كان من المصامدة، في حين أن عبد المؤمن كان ينتمي إلى قبيلة هنتاتة، الأمر سيخلق حالة من الصراع القبلي داخل المشروع الموحدي، وكان عبد المؤمن يدرك مثل هذا التحدي الذي عرف كيف يتعامل معه بذكاء ويخفف من حدته، من خلال الدعوى إلى الالتزام بتعاليم المهدي وعدم الخروج عنها، وقد استطاع إلى حد ما أن يحتوي قبيلة المصامدة الذين كانوا يعتقدون بعودة ابن تومرت المهدي وبانبعاثه من جديد (ابن خلدون، 1988، صفحة 472). وقد تمكن عبد المؤمن من تجاوز هذا التحدي القبلي بشكل جزئي، ولكنه بقي يواجه تحديا أكبر تمثل في كيفية إرساء تأسيس جديد للمشروع الموحدي، وبأي أرضية فكرية وعقدية سينطلق منها، خصوصا بعد موت المهدي و انهيار مقولة المهداوية التي استخدمها ابن تومرت لنشر دعوته ولسحب المشروعية الدينية والسياسية من السلطة المرابطية التي تمثل تحديا مهما آخر، يجب على عبد المؤمن أن يتجاوزه بذكاء وبحكمة. لقد تنوعت جملة التحديات التي واجهها عبد المؤمن، فمنها ما هو ديني، ومنها ماهو سياسي، ومنها ماهو قبلي، ومنها ماهو اجتماعي. وقد كان عبد المؤمن مدركا لمثل هذه التحديات المختلفة، وعليه أن يجد لها حلولا خلال مرحلة التأسيس الثانية للمشروع الموحدي (ابن القطان، د.ت، الصفحات 69- 72).

Volume: 4 Issue: 2

3- مرحلة التأسيس الجديدة للمشروع السياسي الموحدي في عهد المؤمن بن علي:

مثلت هذه المرحلة أحد أهم المنعطفات الرئيسية في تاريخ المشروع السياسي الموحدي، فقد حاول عبد المؤمن أن يعيد بناء المشروع السياسي برؤية جديدة وباستراتيجيات مختلفة، تمنح المشروع السياسي ديناميكية قوية وانطلاقة كبرى، مع الالتزام بالمنهج العام الذي وضعه المؤسس الأول ابن تومرت في بداية الدعوة، وقد يكون هذا الالتزام نابعا من قناعات عبد المؤمن من ناحية، أو ما فرضته الأوضاع السياسية والدينية في تلك المنطقة، فابن تومرت مازال حاضرا بقوة في مشاعر أتباع المشروع الموحدي، وقبيلته المصامدة مازال لها التأثير الكبير على المنطقة، ومازالوا يعتقدون بانبعاث جديد للمهدي ابن تومرت الذي أصبح ضريحه مكانا مقدسا يزوره الالاف من الناس، ويتبركون به (ابن خلدون، 1988، الصفحات 471-472). لقد عمد عبد المؤمن بعد أن تم اختياره خليفة لابن تومرت وزعيما جديدا للمشروع الموحدي إلى وضع سياسات واستراتيجيات جديدة، وحدد أولوياته في هذه المرحلة الصعبة التي يمر بها المشروع الموحدي على المستوى الداخلي والخارجي.

أ – سياسة عبد المؤمن المحلية وتوحيد الجبهة الداخلية: كان عبد المؤمن يدرك أن غياب المهدي ابن تومرت سيخلق تصدعا كبيرا في الجبهة الداخلية، وأن التحالفات التي عقدت مع القبائل لنصرته مهددة بالانهيار، لذلك فقد انتهج سياسة احتواء كل هذه القبائل، خصوصا قبيلة المصامدة التي كانت ترى انها اولى بخلافة المهدي وبقياة المشروع الموحدي، وقد نجح عبد المؤمن إلى حد ما في احتواء هذه المشكلة القبيلية من خلال إعلانه على الاستمرارية في مشروع المهدي والالتزام بتعاليمه التي تركها لهم، لكي يبلغوا دين الله، ويحققوا العدل والسعادة للناس. كما أن عبد المؤمن عرف كيف يختار من سيدير معه شؤون المشروع وقيادته من الشخصيات الاكثر فاعلية والاكثر تحمسا للمشروع، خصوصا الشيوخ الذين بايعوه يوم أن دعا كل القبائل واجتمع بهم، وذكرهم ببيعة عهد المهدي، مثلما يذكر ذلك أبو بكر البيدق في كتابه أخبار المهدي (الصنهاجي أ.، 1975، الصفحات 44-45). وكانت استراتيجية عبد المؤمن هي تقوية مشروعيته السياسية، وتوحيد الجبهة الداخلية، وإعادة تشكيل الجانب التنظيمي والسياسي للمشروع السياسي الموحدي بشكل ينسجم وتحديات المرحلة التاريخية، وبما تقتضيه الظروف المحلية والخارجية. وكانت أولويات الداخلية القضاء على أي انهيار داخلي يمس باستقرار المشروع وبوحدته، لأنه كان يعي تماما أن معركته الخارجية، خصوصا مع المرابطين لن يكسبها إلا بإعادة تنظيم الجبهة الداخلية، وتصفية كل العناصر التي قد تستهدف المشروع ووحدته الداخلية، لا سيما أولئك الذين رفضوا بيعته، ومن أهمهم ابن ملوية الذي كان أحد أعضاء مجلس أهل العشرة، وكان مقربا من المهدي، حيث رفض ابن ملوية مبايعة عبد المؤمن، والتحق بالمرابطين في مراكش، لينخرط معهم في مواجهة الموحدين، وقد تمت تصفيته بعد ذلك من قبل الموحدين بتهمة خيانة المهدي (ميراندا، 2004، الصفحات 102-103).

وهنا نخلص في العنصر إلى أن السياسة الداخلية التي اتبعها عبد المؤمن اتسمت بأسلوبين، أولا أسلوب الاحتواء خصوصا مع القبائل المناوئة، باستخدام تعاليم المهدي والدعوى إلى الالتزام بها، والاستمرار في تحقيق العدل، وإرساء العدالة والشريعة، أما الأسلوب الثاني فقد تميز بتصفية كل من يقف ضد بيعته أو معارضته، مثلما مع وقع مع ابن ملوية، أو مع من قتل أخا عبد المؤمن عندما جاءه لزيارته وجلس في مكانه المخصص له، مما أثر غضب بعض من الجماعة، وعمد أحدهم إلى قتل أخا عبد المؤمن، فلم ينس هذا الأخير هذه الحادثة، ولكنه عمل على الثأر من أجل القضاء على كل من سيقف أمامه (الغناكي، 1988، الصفحات 51-52). من ناحية أخرى كانت أهم اولوية لمرحلته هو توحيد الجبهة الداخليةا ووضع استراتيجيات لإصلاح المشروع السياسي من جديد، بشكل يتساوق وطبيعة التغيرات والمستجدات التي طرأت على المستوى المحلي والخارجي. وهنا نفهم أن عبد المؤمن كان يملك فهما عميقا لطبيعة التوازناتن سواء على مستوى المنطقة التي يوجد فيها وتحالفاته مع القبائل الداعمة له، سواء بما يتعلق باستراتيجية المواجهة مع المرابطين والبحث عن خيارات جديدة، تسمح له بالتوسع والنفوذ في عمق الأراضي المرابطية، والاستيلاء على مراكش عاصمة الدولة المرابطية (الصنهاجي ا.، 1971، الصفحات 44-46).

ب– سياسة عبد المؤمن الخارجية وصراع النفوذ:

كان عبد المؤمن الزعيم السياسي الجديد للمشروع الموحدي يدرك أهمية الاستمرار في دعوة ابن تومرت، ونشر تعاليمه التي تعد أهم ورقة مؤثرة لسحب المشروعية الدينية للدولة المرابطية، ومن ثم سحب مشروعيتها السياسية. لذلك واصل عبد المؤمن في سياسته الخارجية التي تركز بالدرجة الأولى على هدف التوسع والنفوذ في العديد من المناطق التي يسيطر عليها المرابطون وبعض القبائل الموالية لهم. وقد انتهج عبد المؤمن سياسة خارجية قائمة على ثلاثة مرتكزات أساسية: أولا إخضاع القبائل التي مازالت لم تلتحق بالدعوة الموحدية إما بالقوة أو من خلال الدعوة والاحتواء والاقناع بتعاليم المهدي ابن تومرت، وكان في كثير من الأحيان يلجأ إلى القوة وإلى خلق انقسامات داخل هذه القبائل، والتحالف مع أقسام منها لإضعافها، وتشتيت جهودها أمامه. وكان الهدف من ذلك إضعاف قوة المرابطين سواء على مستوى الإمدادات العسكرية، أو على مستوى نفوذهم في هذه المناطق. ويعد هذا الأسلوب تكتيكا سياسيا واستراتيجيا ذكيا وفعالا، رغم العديد من التجاوزات التي مورست في حق هذه القبائل من قتل ونهب وسرقة وسياسة الإكراه. أما المرتكز الثاني في سياسة عبد المؤمن الخارجية فتقوم على عزل السلطة المرابطية، وسحب المشروعية الدينية والسياسية منها، حتى تصبح عاجزة على مواجهة الزحف الموحدي الذي يقوده عبد المؤمن على أنه المشروع الإسلامي البديل الذي سيوحد المنطقة ويحميها من أعداء الإسلام، وقد اعتمد هنا في هذا المرتكز على الدعاية الإعلامية التي تكشف انحرافية المرابطين عن الدين، وأنه وجب الخروج عنهمن وعدم مولاتهم ونصرتهم، وضرورة إسقاط سلطتهم. أما المرتكز الثالث فيتمثل في الاستفادة من الخلافات الداخلية في الدولة المرابطية، ومحاولة شق وحدتهم من خلال التحالف مع بعض الشخصيات أو القبائل الموالية لهم، بقصد تشتيت قوة نفوذهم وإضعاف قوتهم الداخلية والخارجية (الصنهاجي أ.، 1975، الصفحات 45-47). وعموما يمكن القول إن هذه السياسة التي انتهجها عبد المؤمن، سواء الداخلية منها أو الخارجية تعكس مستوى النضج السياسي والعسكري الذي شهده المشروع السياسي الموحدي بعد وفاة المؤسس الأول ابن تومرت. والحقيقة يعود هذا الأمر إلى أن المشروع الموحدي بعد أن اتضحت رؤيته الفكرية والدينية أصبح تركيزه الأساسي الآن في مرحلة عبد المؤمن هو إسقاط السلطة المرابطية، وإنشاء دولة موحدية بديلة، فقد وصل الموحدون إلى قناعة بأنهم أصبحوا من خلال الانجازات التي حققوها قوة سياسية فاعلة في خريطة التوازنات المحلية والإقليمية، وباتت أحلامهم السياسية تتجاوز حدود منطقة المغرب الأقصى نحو التوسع إلى مناطق شمال إفريقيا وكذلك منطقة الأندلس. وهذا ماسنتحدث عنه في المبحث الثالث في مرحلة مابعد سقوط المرابطين وظهور الدولة الموحدية على مسرح الأحداث والدور الذي ستلعبه محليا وإقليميا. من ناحية أخرى كان عبد المؤمن يتمتع بميزة التحكم في سلوكه السياسي، والقدرة على ضبط نفسه، كما كان يمتلك عقلا بادرا وصبرا كبيرا في مواجهة الخصوم، والقدرة على معرفة نقاط ضعف العدو والعمل على استغلالها في معاركه السياسية والعسكرية على حد سواء (ميراندا، 2004، الصفحات 138-143).

4– ملامح الاستراتيجية العسكرية لعبد المؤمن بن علي ونتائجها:

أ– مرتكزات الاستراتيجية العسكرية:

عند الحديث عن الاستراتيجية العسكرية التي انتهجها عبد المؤمن ضد المرابطين فإننا نلمح أربعة مرتكزات أساسية: تتمثل الأولى في استيعاب عبد المؤمن وأتباعه لطبيعة الخارطة الجيواستراتيجية التي يتواجد فيها، وما تتمتع به هذه المناطق من مواقع استراتيجية ذات أهمية بالغة في المواجهة مع المرابطين، خصوصا تلك المنافذ الجغرافية التي تتحكم في الطرق المؤدية إلى عاصمة المرابطين مراكش. أما المرتكز الثاني لهذه الاستراتيجية فيتمثل في شكل المواجهات العسكرية التي سيخوضها عبد المؤمن في معاركه ضد المرابطين، فقد انتهج استراتيجية حرب العصابات وأسلوب الخديعة و مباغتة الجيوش المرابطية وإلحاق أكبر خسائر ممكنة فيهم. أما المرتكز الاستراتيجي الثالث فقد انتهج عبد المؤمن استراتيجية فتح جبهات متعددة ضد المرابطين ومن جهات مختلفة، لتشتيت جهودهم واستنزاف قدراتهم العسكرية، وتكبيدهم خسائر حربية كبيرة، واستنزاف قوة الجيوش المرابطية. أما المرتكز الرابع في هذه المعادلة الاستراتيجية فيتمثل في إدارك عبد المؤمن لأهمية الجانب الاقتصادي، ولذلك سعى إلى محاصرة المرابطين في مواقع

Volume: 4 Issue: 2

استراتجية، تحمل أهمية اقتصادية وتعتبر مجالا حيويا في للاقتصاد المرابطي، كما عول على حرب استنزاف اقتصادي، خصوصا وأن الجيش المرابطي يعتبر جيشا شبه نظامي، وتكاليفه كبيرة جدا، لذلك راهن عبد المؤمن على عامل الزمن وعلى إلحاق خسائر فادحة في الجيش المرابطي، مما يستنزفهم اقتصاديا، فيسهل محاصرتهم، وبذلك يتم الانقضاض على مراكش العاصمة وإنهاء الوجود المرابطي (ميراندا، 2004، الصفحات 143-146).

شكلت كل هذه المرتكزات آليات وتكتيكات عسكرية نحو تحقيق الهدف الأساسي وهو السيطرة على مراكش عاصمة المرابطين. وقد تم تنفيذ هذه الاستراتيجية بعد وفاة ابن تومرت بمدة تقرب من السبع سنوات، ذلك أن المرحلة التي تلت وفاة ابن تومرت مباشرة انشغل فيها عبد المؤمن ومن معه بترتيب البيت الموحدي من الداخل، وتحصين الجبهة الداخلية، وبعد أن تمكن من ترسيخ نفوذه في الهيمنة على قيادة المشروع الموحدي، انطلق في تنفيذ هذه المواجهة العسكرية ضد المرابطين، والتي سماها معركة السنوات السبع.

ب- تنفيذ الخطة الاستراتيجية وتطوراتها:

ذكرنا سابقا أن المواجهات ضد المرابطين بعد وفاة ابن تومرت مباشرة لم تأخذ نسقا سريعا ومتواترا، فقد اقتصرت على غارات متفرقة هنا وهناك، وكانت تفتقد إلى خطط استراتيجية مدروسة وأولويات محددة، ويعود ذلك إلى انشغال القيادة الجديدة للمشروع الموحدي بترتيب الجبهة الداخلية والقضاء على عوامل الفتنة التي تحدق بها. وبالرغم من الانشغال تمكن عبد المؤمن الزعيم الموحدي الجديد من إلحاق ضربات شديدة، سواء في القبائل الموالية للمرابطين، أو للجيش المرابطي نفسه. ويظهر ذلك في من خلال الهجمات التي شنها الموحدون سنة 528 هـ على منطقة السوس التي أصبحت خاضعة إلى النفوذ الموحدي، كما تمكن عبد المؤمن سنة 532 هـ من إلحاق أضرار كبيرة في صفوف الجيش المرابطي في معركة محلات عسكر المغرب. كل هذه العمليات رغم افتقادها لاستراتيجية عسكرية واضحة، إلا أنها في المرحلة اللاحقة كانت تمثل رصيدا من التجربة المهمة التي استفاد منها عبد المؤمن في تنفيذ استراتيجة المواجهة في مرحلة ما بعد السنوات السبع، حيث استفاد من الأخطاء التي وقع فيها، وكذلك عرف أهم المواقع الاستراتيجية المؤثرة في المواجهة، وكذلك فهم نقاط القوة ونقاط الضعف لدى الجيش المرابطي (ابن القطان، د.ت، صفحة 232).

لذلك ومنذ سنة 533هـ أصبحت الأولوية الكبرى لعبد المؤمن وللمشروع الموحدي هو محاصرة المرابطين وعاصمتهم مراكش من كل الجهات، وفتح جبهات متعددة ضدهم. وفعلا فقد استغل عبد المؤمن جرائم القتل التي قام بها المرابطون ضد قبيلة منانة، ليجلب هذه القبيلة ويتحالف معها ضد المرابطين، وبذلك تمكن عبد المؤمن بتحالفه مع هذه القبيلة من تقوية قواته العسكرية عدديا، وكذلك من بسط نفوذه في هذه المنطقة. كما انتهز عبد المؤمن الفرصة في الأخطاء التي ارتكبها المراطبون في بعض القبائل الأخرى من قتل وسلب ونهب، ومثلما وقع مع قبيلتي بني وجدزران وبني سوار، حيث وجد عبد الؤمن الفرصة لتحريض هذه القبائل ضد السلطة المرابطية وضمها إلى الصف الموحدي، واستخدامها في هجماته ضد القلاع المرابطية وضد المناطق التي يتمركزون عليها. ويمكن القول إن هذه الاستراتيجية التي انتهجها عبد المؤمن بدأت تؤتي ثمارها، وتظهر تقدما بارزا نحو الهدف الرئيسي وهو الاستيلاء على مراكش، وإنهاء دولة المرابطين، رغم بعض الخسائر التي تعرض لها المشروع الموحدي وسياسة الحصار الذي ضربه المرابطون ضدهم في عدة مواطن، مثلما وقع في موقع تيزعور، حيث تأثر الموحدون واضطروا إلى أكل حيواناتهم من شدة الحصار الذي فرض عليهم لمدة شهرين (الصلابي، 1998، الصفحات 105-107).

كان عبد المؤمن يدرك أن معركته مع المرابطين معركة طويلة، وتحتاج إلى الصبر وضبط النفس والرهان على عامل الزمن الذي تتغير فيه المعطيات، وتظهر فيه مستجدات في الصف المرابطي الذي بدأ يفقد في معاركه بعض القيادات الفاعلة وانسحاب العديد من القبائل التي كانت موالية لهم والتحاقها بالمعسكر المرابطي. لذلك فقد استمر عبد المؤمن في مواجهة المرابطين، بل وكثف

من هجماته ضدهم على عدة جبهات وفق الخطة والاستراتيجية التي وضعها. فقد تمكن من السيطرة على قسم كبير من منطقة السوس والاستيلاء على العديد من الحصون، وكذلك سنة 536 هـ من السيطرة على مدينة آزرو وبقية المناطق الجنوبية التابعة لها، وكذلك على سجلماسة.

والحقيقة انعكس هذا التقدم والنجاح في التوسع وبسط النفوذ بشكل مباشر على طبيعة خريطة التوازنات والتحالفات التي كانت قائمة آنذاك، فقد أصبح الموحدون بقيادة عبد المؤمن الرقم الصعب الجديد في معادلة الصراع، وتشكلت خريطة تحالفات جديدة، وانقسمت المنطقة إلى محورين أساسيين: المحور المرابطي مع بعض القبائل المتحالفة معه، ويجد دعما من الأندلس، والحقيقة إن هذا المحور يعيش تراجعا كبيرا وتقهقرا جراء انسحاب العديد من القبائل المتحالفة معه، مما جعله يفقد العديد من المناطق الواسعة حتى كاد يسيطر على مدينة مراكش وبعض المناطق المجاورة لها. أما المحور الآخر فهو المحور المرابطي مع حلفائه من القبائل المتحالفة معه سابقا ولاحقا، ويشهد هذا المحور حالة من الانسجام والتناغم وامتلاك زمام المبادرة للتأثير على خريطة الصراع والمواجهة، وقد تمكن المحور الموحدي من بسط نفوذه على مناطق شاسعة وعلى مواقع استراتيجية مهمة (الصلابي، 1998، صفحة 108).

استمر المحور الموحدي في تحقيق استراتيجيته التوسعية والاستيلاء على عدة مناطق، إلى حدود سنة 537 هـ، وهي السنة التي قتل فيها زعيم المحور المرابطي علي بن يوسف متأثرا بجراحه في معركة ضد الموحدين، وقد أثر موت علي بن يوسف بشكل مباشر على وحدة المراطبين، أدرك حينها عبد المؤمن زعيم الموحدين أن الكفة الآن بدأت ترجح لصالحه ولصالح حركته، وأن عمر الدولة المرابطية قربت نهايته، ولم يبق أمامه سوى القليل لبلوغ هدفه.ف ي هذه الأثناء بدأت جبهة التحالفات داخل المرابطين تتصدع وتتفكك، حيث انسحبت قبيلة مسوفة من الحلف بعد خلافها مع لمتونة، والتحقت بالمحور الموحدي. ويعد هذا الحدث تحولا مهما في ميزان القوى من ناحية، وفي تكيتيكات النفوذ العسكري من ناحية أخرى (ميراندا، 2004، الصفحات 123-125).

لكن العامل الأساس الذي سيفتح الباب مباشرة نحو الاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين تمثل في قتل زعيم المرابطين تاشفين بن علي سنة 539هـ، بعد أن قتل قائد جيشه الربرتيري في معركة تلمسان التي انتصر فيها الموحدون، وسيطروا عليها وعلى عدة مناطق استرتيجية مهمة، منها وهران وفاس وغيرها. وعلى إثر هذه التطورات عرفت الدولة المرابطية بعد موت زعيمها تاشفين انهيارا على المستوى السياسي وتفكك الدولة، ليصبح الطريق مفتوحا أما المشروع الموحدي بقيادة زعيمه عبد المؤمن الذي استطاع سنة 540 هـ من الاستيلاء على مدينة مراكش عاصمة المرابطين، ولتكون نهاية الدولة المرابطية، وتولد من رحمها دولة الموحدين التي ستنتقل في تفكيرها السياسي من مفهوم الجماعة والإمارة إلى مفهوم الدولة، وتتغير استراتيجتها، وتصبح لاعبا مها في خريطة التوازنات، ليس فقط في منطقة المغرب الأقصى، بل في كل شمال إفريقيا ومنطقة الأندلس (زمامة، 1979، الصفحات 11-13).

ج- نتائج هذه الاستراتيجية العسكرية:

إن من أهم النتائج التي حققها عبد المؤمن بن علي من خلال هذه الاستراتيجية مايلي:

- أنه استطاع أن يغير من خريطة التوازنات والتحالفات في المنطقة، وأصبح فيها الرقم الصعب في معادلتها، والتحكم في مساراتها.
- تمكن عبد المؤمن من تطوير وسائله الحربية وتكتيكاته العسكرية بشكل يقتضيه الواقع، وأصبح لديه جنود متمرسون وقادرون على خوض معارك بكل حرفية وشجاعة
- تمكن من بسط نفوذه على العديد من المناطق الجغرافية الاستراتيجية، وأسس فيها قواعد عسكرية ستمكنه من الاستفادة منها في المراحل اللاحقة

Volume: 4 Issue: 2

– استطاع أن يبني منظومة تحالفات مع القبائل ويضمها إلى محوره، وتعزز قوته العسكرية في المنطقة، وعزل السلطة المرابطية عزلة نهائية.

– أدرك عبد المؤمن أهمية حرب العصابات في مواجهة الأعداء، وهذا الأسلوب سيتم توظيفه لاحقا ضد كل المعارضين لسلطته في المرحلة اللاحقة سواء من الداخل أو من الخارج.

– أصبح عبد المؤمن الزعيم الأقوى في المنطقة، وفي ميزان القوى ليس في المغرب فحسب، بل أيضا في منطقة شمال إفريقيا والأندلس.

– تمكن عبد المؤمن من إسقاط الدولة المرابطية بعد الاستيلاء على عاصمتهم مراكش، والقضاء على وجودهم نهائيا، والإعلان عن تأسيس الدولة الموحدية بقيادة الزعيم عبد المؤمن.

المبحث الثالث: نهاية المرابطين ومرحلة التأسيس الثالثة للمشروع الموحدي في عهد المؤمن:

أ– انتقال المشروع الموحدي من مفهوم الجماعة إلى مفهوم الدولة:

ذكرنا سابقا أن فكرة تأسيس دولة لدى الموحدين كانت تخامر خلد مؤسس الجماعة الأول ابن تومرت، الذي استطاع أن يؤسس حركة إصلاحية وسياسية في نفس الوقت، تمتلك رؤية فكرية وسياسية غير تقليدية مقارنة بالدولة المرابطية التي لم تعمل على تطوير أفكارها السياسية، وظلت تمارس الدولة بأساليب تقليدية، لم تعد تتماشى والمتغيرات الجديدة التي تشهدها المنطقة. غير أن ابن تومرت لم يكن شخصية متعجلة، فقد كان يدرك أن هذه الدولة تحتاج إلى فكرة ودعوة تنطلق منها لتكون لها أنصارا، وتنتشر في تلك الربوع التي يسيطر عليها الجهل بالدين، لذلك وجد ابن تومرت الفرصة سانحة له لكي ينشر أفكاره، ويتحول إلى أهم زعيم مصلح في تلك المنطقة.

كما كان ابن تومرت يدرك أن هناك مراحل طويلة يجب تحقيقها من أجل تأسيس الدولة الموحدية المنشودة. لذلك ومنذ أن اشتد عود دعوته، وأصبح لها أتباع كثر في تلك المنطقة، انتقل بعدها إلى مرحلة مواجهة الدولة المرابطية، لكن هذه المرحلة مرت بعدة صعوبات وتحديات كبيرة، حيث أدرك ابن تومرت أنه لا بد من البحث عن أسلوب جديد لسحب المشروعية الدينية والسياسية من الدولة المرابطية التي تحكمها مناطق واسعة منها الأندلس. لذلك كان قد أعلن أنه المهدي المنتظر الذي سيصلح ما أفسده المفسدون وسينشر العدل، ويزيل الظلم وغير ذلك. والحقيقة إن فكرة المهداوية بغض عن صدقيتها من عدم صدقيتها كانت طريقة ذكية نجح بها ابن تومرت في أن يضرب المشروعية الدينية والسياسية للمرابطين في نفس الوقت، كما أن المهداوية ساهمت في تزايد مناصريه، مستغلا في ذلك حالة ضعف الوعي الديني للناس. من جهة أخرى كان الاعلان عن المهداوية هو أيضا انتقال في الوعي السياسي الموحدي من مرحلة الجماعة إلى مرحلة التأسيس لدويلة صغيرة تكون منطلقا نحو تأسيس مشروع الدولة الموحدية الكبرى بعد القضاء على الدولة المرابطية (ميراندا، 2004، صفحة 140).

لقد انطلق المشروع السياسي الموحدي في عهد ابن تومرت من جماعة دينية تصحح مفاهيم الإسلام، وتدافع عنه وتنشر تعاليمه، إلى جماعة تملك مشروعا سياسيا، وتطمح أن تؤسس دولة دينية على أنقاض الدولة المرابطية. لقد كان بروز المهداوية هو تحول جديد في العقل السياسي الموحدي، وبداية منعطف جديد في المشروع السياسي الموحدي. ورغم أن المهدي ابن تومرت لم تتحقق مزاعمه كمهدي إلا أن دعوته وتعاليمه استمر بها عبد المؤمن وصناع القرار في الجماعة الموحدية، فقد كان عبد المؤمن يدرك جيدا أن التخلي عن تعاليم ابن تومرت وعن مهداويته سيضعف المشروع الموحدي، خصوصا أمام المرابطين.

لذلك واصل عبد المؤمن في التمسك بقوة بتعاليم المهدي، لكي يسحب المشروعية السياسية والدينية من السلطة المرابطية. ورغم انكشاف المهداوية المزعومة وانكشاف مسألة إخفاء موت ابن تومرت المهدي لمدة ثلاث سنوات، إلا أن عبد المؤمن كان يتمتع بذكاء كبير، وحنكة وفهم عميق لأهمية استخدام ورقة المهداوية وتعاليم المهدي، مستغلا في ذلك حالة الجهل بالدين في تلك المناطق. وقد نجح عبد المؤمن بواسطة هذه الورقة في تحقيق نجاحات كبيرة، وفي تكوين تحالفات مع قبائل انسحبت من المرابطين لتلتحق بمحور المرابطين، وهو ما نتج عنه إضعاف محور المرابطين وإسقاط دولتهمن وولادة الدولة الموحدية بزعامة عبد المؤمن الذي سينقل المشروع السياسي الموحدي نظريا وعمليا من مرحلة الجماعة أو الإمارة إلى مرحلة الدولة، وما يقتضيه هذا الانتقال من تغيير في الوسائل وفي الممارسة. لقد انتقل المشروع السياسي الموحدي فعليا من مفهوم الجماعة إلى مفهوم الدولة مع عبد المؤمن الذي يعد المؤسس الفعلي الثاني للمشروع، فقد نجح هذا الرجل في الانتقال بالمشروع من مرحلة الدعوة إلى مرحلة التأسيس للدولة، من خلال رسم أولويات للمشروع، ووضع له استراتيجيات لتحقيق الهدف الأكبر، وهو إنهاء الدولة المرابطية، وتأسيس الدولة الموحدية، وقد نجح في ذلك، واستولى على مراكش، ليدخل المشروع السياسي الموحدي إلى مرحلة جديدة (الصلابي، 1998، صفحة 133).

Volume: 4 Issue: 2

ب– أهم التحديات التي تواجه الموحدين في المرحلة الجديدة:

بعد أن تمكن الموحدون من الاستيلاء على مراكش وإنهاء الدولة المرابطية، انتقل زعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي إلى تأسيس الدولة الموحدية، والدخول في مسارات ومعادلات وتحديات جديدة، سيواجهها المشروع السياسي الموحدي في الفترات اللاحقة، خصوصا على مستوى التحديات الداخلية والإقليمية والخارجية. و يمكن القول إن هذه المرحلة تعتبر مرحلة تأسيس ثالثة للمشروع السياسي الموحدي، فهي أصعب مرحلة لأنه سيتم فيها تأسيس دولة جديدة، مما يتطلب من صناع القرار الموحدين تبني ثقافة الدولة والتخلي عن ثقافة الجماعة. فالمشروع الموحدي أصبح الآن يتحكم في منطقة جغرافية تضم العديد من الشعوب والقبائل، سواء كانت المناصرة منها أو تلك المعارضة للموحدين، مما يتطلب من العقل السياسي الموحدي التعامل بعقل الدولة التي تضم الجميع، وتتفاعل مع كل القوى الموجودة في هذه المساحة الجغرافية الشاسعة. كما أن الدولة الموحدية الجديدة تنتظر تحديات إقليمية أخرى صعبة، خصوصا في منطقة شمال إفريقيا، أو في منطقة الأندلس، مما يتوجب على عبد المؤمن ومن معه على رسم سياسة خارجية، وبناء علاقات ديبلوماسية مع عدة جهات مختلفة. لقد كانت هناك عدة ملفات حساسة وشائكة مطروحة أمام الدولة الموحدية الجديدة، ويتوجب على صناع القرار فيها التعامل مع هذه الملفات بشيء من الذكاء والحنكة، وإدارتها بطريقة احترافية. ويبدو أن مثل هذه الملفات كان الزعيم الموحدي عبد المؤمن يدركها، ويعرف كيف سيتعامل معها بواقعية وعقلانية، خصوصا وقد بنى شبكة تحالفات مع مختلف القبائل ليوطد بها أسس دولته الجديدة، وبناء مؤسساتها الإدارية والسياسية والاقتصادية، والدينية، ورسم خارطة طريق جديدة للتعامل مع بقية القوى والتوازنات الموجودة في المنطقة (الصلابي، 1998، صفحة 130).

كان عبد المؤمن يعي أنه رغم انتصاره على المرابطين وإنهاء دولتهم، فإن هناك جهات لا زالت موالية لهم، وتتحرك في عدة جيوب نحو وأد مشروع دولته الجديدة، كما كان عبد المؤمن يدرك أهمية الجبهة الأندلسية المعقدة، والتي تمثل تحديا كبيرا للمشروع الموحدي من الشمال، خصوصا وأن هناك قوى إسلامية معارضة له، وكذلك وجود القوى الصليبية المسيحية التي سيطرت على مناطق واسعة من الأندلس، خلال الصراع المرابطي الموحدي، ودخول المنطقة في صراعات وفتن كبيرة، أعطت الفرصة لهؤلاء الصليبيين من التوسع على حساب المسلمين. من ناحية أخرى كانت هناك جبهة أخرى تحتاج من عبد المؤمن أن يخضعها لسيطرته، وتتمثل في بقية أجزاء الجزائر وتونس وليبيا، وإنقاذ هذه المناطق من الغزو الصليبي النورماندي الذي ينشط في منطقة البحر المتوسط بفاعلية كبيرة، وهو ما يشكل تهديدا للموحدين من الجهة الشرقية.

ج– أولويات عبد المؤمن في مرحلة تأسيس الدولة واستراتيجياته:

أمام تعقد هذه الظروف وتشابك جبهاتها وجد عبد المؤمن نفسه في وضع لا يحسد عليه، ويجب عليه أن يحدد أولوياته، ويضع استراتيجياته للتعامل مع مثل هذه الملفات الصعبة والخطيرة. وكان على عبد المؤمن أن يوطد أركان دولته الجديدة سواء على المستوى الداخلي، أو على مستوى منطقة المغرب الإسلامي بما فيها الأندلس. ولذلك حدد عبد المؤمن أولوياته واستراتيجياته.

– استبدال الهيكل التنظيمي للجماعة بهيكل إداري جديد للدولة:

كان عبد المؤمن يدرك أنه يجب أن يؤسس دولته من الناحية التنظيمية والإدارية بمفهوم الدولة وليس بمفهوم الجماعة التي تأسست على نظم وهياكل تنظيمية تنسجم مع روح الجماعة خاصة، وليس كدولة جامعة لكل التناقضات الموجودة في المجتمع الموحدي الجديد. ويبدو أن عبد المؤمن أدرك ضرورة تغيير الهيكل التنظيمي، خصوصا بعد أن توفي أغلب أعضاء مجلس العشرة الذين كانوا يتولون إدارة الجماعة مع عبد المؤمن، كما أن مجلس شورى الموسع المسمى مجلس الخمسين وكذلك مجلس السبعين قد تناقصت أعدادهم، حيث أصبحت هذه المجالس غير قادرة على إدارة الجماعة، فمابالك بإدارة الدولة. لذلك وجد عبد المؤمن الفرصة لكي يتخلص من سلطة الجماعة، فقام بحل مثل هذه المجالس ليعوضها بتنظيم ومجالس إدارية تتناسب ومرحلة الدولة

الجديدة. وقد وضع عبد المؤن لنفسه صلاحيات واسعة، لكي يتخلص من تدخل أي جهة أخرى في شؤون إدارة الدولة. وبذلك يكون عبد المؤمن قد نقل مشروعه السياسي من مفهوم الجماعة إلى مفهوم الدولة، وأصبح الزعيم الفعلي الذي لا ينافسه أحد في ذلك، مما يسمح له الاستحواذ على الدولة، ويحصرها في عائلته هو بعد أن تخلص من الأشخاص الذين قد يشكلون قوة معارضة له في الدولة الجديدة (الصلابي، 1998، الصفحات 122-126).

هكذا يكون عبد المؤمن بن علي قد قام بعملية تأسيس جديدة للمشروع السياسي الموحدي بمفهوم الدولة وتنظيمها الهيكلي، وليس بمفهوم الجماعة والإمارة التي أدرك أنها لم تعد صالحة في مرحلة الدولة. والحقيقة ورغم أن عبد المؤمن قد صاغ تنظيما إداريا استحوذ فيه هو على أغلب السلطات والصلاحيات، إلا أنه كان واقعيا ومدركا لتحديات المرحلة الجديدة، ويملك عمق نظر لمجريات الأمور ولطبيعة التوازنات سواء كانت محلية أو إقليمية. لقد تطور فكره السياسي، ونضج من خلال المراحل السابقة، وأصبح الشخصية الأقوى في إدارة المشروع السياسي الموحدي، وقد نجح من خلال تأسيس الهياكل التنظيمية الجديدة للدولة في إبعاد أي شخصية قد تقف ضده أو تعارضه ممن كان لهم نفوذ وموقع في إدارة الجماعة. بل إن حضور الدولة في ذهن عبد المؤمن جعل فكرة المهدي وهيمنة شخصية ابن تومرت تتراجع وتخفت في وعي الناس. وكان عبد المؤمن براغماتيا في استخدام شخصية ابن تومرت المهدي في الوقت الذي يجب أن يستخدمه لتحقيق أهدافه السياسية (الصلابي، 1998، الصفحات 122-126).

– سياسة عبد المؤمن التوسعية في المغرب الأوسط والأدنى والأندلس:

ما إن استقرت الأوضاع لعبد المؤمن في تأسيس هياكل الدولة الموحدية الجديدة، وتقوية نفوذه داخليا، انتقل إلى وضع استراتيجية توسعية إقليمية وخارجية، وذلك لأنه كان يدرك أن بقاء الدولة الموحدية منحصرة فقط في جغرافية المغرب الأقصى سيضعفها، ويجعلها معرضة إلى تهديدات من دول الجوار.كما كان عبد المؤمن واعيا بمدى حاجة دولته إلى تطوير نفوذها الجغراسياسي من أجل تطوير قوتها الاقتصادية والعسكرية، والتمدد نحو الضفة الشرقية في اتجاه تونس وليبيا وحوض البحر المتوسط الذي يسيطر عليه النورمانديون. منذ ذلك الحين وضع عبد المؤمن خطته التوسيعية، وقد اتركزت على الأولويات التالية:

أ- **التوسع في المغرب الأوسط**: تعد هذه المنطقة بالغة الأهمية بالنسبة إلى الدولة الموحدية الجديدة، فهي منطقة جوار مباشر قد تشكل تهديدا لها، خصوصا وأنها كانت نفوذ إمارة بني حماد التي تعد أحد أهم المنافسين له، ولذلك استطاع أن يدخل في تحالفات مع القبائل الموالية لبني حماد، وأضعف هذه الإمارة وأصبحت تحت سيطرته ونفوذه، كما استطاع عبد المؤمن أن يكسب بفضل دهائه السياسي بعض القبائل التي مازالت مناوئة له، وكون حلفا قبائليا، قد يقف ضد قبيلة المصامدة التي ترى في عبد المؤمن أنه سحب منهم سلطة النفوذ، وأنه تنكر إلى دعوة ابن تومرت. هذه النجاحات التي حققها عبد المؤمن في منطقة المغرب الأقصى ساعدته على التوسع في اتجاه الشرق، مما سيعزز وجوده العسكري من ناحية، وكذلك تقوية وارداته الاقتصادية من تلك المناطق من ناحية اخرى. فعبد المؤمن لم يكن شخصا ساذجا بسيطا، بل كان يدرك بحنكته ودهائه السياسي أهمية التوسع الجغرافي في تطوير الدولة اقتصاديا وعسكريا. (الغناكي، 1988، الصفحات 56-61).

ب- **التوسع في منطقة المغرب الأدنى**: بعد الانتصارات التي حققها عبد المؤمن في منطقة المغرب الأوسط أصبح الطريق مفتوحا له نحو تونس وليبيا، أو ما يسمى بمنطقة المغرب الأدنى، وقد نجح في السيطر عليها، مستخدما أسلوب التحالفات القبلية، خصوصا قبائل بني هلال التي تحالف معها، وخضعت هذه المناطق له. لقد كان عبد المؤمن يدرك أهمية العصبية القبلية في تلك المناطق، لذلك عرف كيف يساير هذه القبائل و يكسب ودهم، وأن يضمهم إلى سلطته. وبسيطرته على المغرب الأدنى يكون عبد المؤمن قد سيطر على كامل الجغرافية المغاربية، وأصبح مطلا على حوض البحر المتوسط من الناحية الشرقية، فانطلق بعد ذلك في

Volume: 4 Issue: 2

صراع مع النورمنديين، واستطاع أن يسيطر على جزيرة صقلية ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة في البحر المتوسط (الصلابي، 1998، الصفحات 135-136).

ت- **التوسع في منطقة الأندلس**: بعد أن بسط نفوذ وتمدده على كامل الجغرافية المغاربية وجزيرة صقلية، وخضعت له كل القبائل المنتشرة فيها انتقل عبد المؤمن بن علي في هذه المرحلة إلى التوسع نحو الشمال، حيث الأندلس التي كان عبد المؤمن يدرك أهميتها الاستراتيجية، ويدرك التهديدات التي تتربص بها من قبل الإسبان الصليبيين، لذلك قرر سنة 557 هـ أن يعد العدة، ويشكل أسطولا بحريا وجيشا كبيرا لينطلق به نحو الأندلس ليخضعها. وقد وضع عبد المؤمن كل الخطط والاستراتيجيات الممكنة لمواجهة الصليبيين وكل المناوئين للدولة الموحدية التي بات فاعلا أساسيا في معادلات الصراع في الخارطة الجيوستراتيجية المغاربية والأندلسية والمتوسطية. ورغم هذه الاستعدادات الكبيرة والحرص الذي أبداه عبد المؤمن في السيطر على الأندلس، وبسط نفوذه عليها، إلا أن هذه العملية لم تتم، وذلك بسبب مرض عبد المؤمن مرضته الأخيرة والتي أودت بحياته سنة 558هـ (الغناكي، 1988، صفحة 78).

– **موت عبد المؤمن وبداية مرحلة جديدة للمشروع الموحدي**: يعد عبد المؤمن الشخصية الأبرز الذي لعب دورا بارزا ومهما في تطوير الوعي السياسي الموحدي، فهو الذي استطاع أن ينقل المشروع الموحدي من حيز مفهوم الجماعة الضيق، لينطلق به نحو مفهوم أوسع هو مفهوم الدولة. وقد كان عبد المؤمن بعمق تفكيره ودهائه وحنكته قد استطاع أن يحقق نجاحات كبيرة، ويؤسس مشروع دولة لعبت دورا مهما في خريطة التوازنات في تلك المنطقة. وقد توفي عبد المؤمن سنة 558 هـ (الغناكي، 1988، صفحة 78)، بعد أن حول حكمه إلى حكم وراثي في أبنائه الذين دخلوا بعده في صراع على عرش السلطة، ثم لينتهي هذا الصراع، ويؤول الحكم إلى أحد أهم أبناء عبد المؤمن وهو يعقوب بن يوسف الذي سيكون له شأن كبير ودور بارز في مواجهة الصليبيين في منطقة شمال إفريقيا وفي المنطقة المتوسطية، بل سيكون له الدور البارز في مساعدة صلاح الدين الأيوبي في حربه لتحرير القدس الشريف من أيدي الصليبيين. توفي عبد المؤمن بعد مسيرة طويلة بدأت مع مؤسس الدعوة الموحدية ابن تومرت، وليأخذ هو بعد ذلك زمام قيادة المشروع الموحدي، ويطوره ويوسع في آفاقه السياسية، ويحوله إلى أحد أهم الدول في العصر الوسيط، حيث لعبت دورا بارزا في خريطة التوازنات على المستوى المغاربي وعلى مستوى الضفة الغربية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط، كما كانت تجربة الموحدين أحد اهم التجارب السياسية المتميز في التاريخ السياسي الإسلامي.

الخاتمة:

مثل المشروع السياسي الموحدي تجربة سياسية مختلفة عن بقية التجارب السياسية الأخرى في العصر الوسيط، فقد تمكن ابن تومرت من أن يؤسس لبنات لمشروع سياسي عقائدي، لعب دورا مهما في خريطة التوازنات في منطقة المغرب الإسلامي، وأحدث ديناميكية فكرية وثقافية وسياسية جديدة، ساهمت بشكل كبير في الوقوف ضد التحديات الكبرى التي كانت تواجه المنطقة، خصوصا حالة التشرذم السياسي والمجتمعي، وكذلك التهديدات الخارجية المتربصة بها، للسيطرة عليها وفي مقدمتها الخطر الصليبي. وبعيدا عن الدخول في نقاش حول مدى صدق أو كذب ابن تومرت في مهداويته وفي مزاعمه وأفكاره الدينية التي بشر بها، إلا أنه يمكن القول إن تجربة ابن تومرت لم تولد من فراغ، بل تأثرت بتجارب إسلامية مشابهة، لعل أهمها تجربة السلاجقة الذين أسسوا دولة سنية، لعبت دورا بارزا في الشرق العربي والإسلامي، وقاومت المشروع الصليبي، وواجهته في عدة مناطق مختلفة من الجغرافية الإسلامية، وأوقفت تقدمه. وقد عاين ابن تومرت خلال رحلته إلى بغداد هذه التجربة وتأثر بها، وعاد إلى مسقط رأسه ليؤسس نموذجا مشابها للنموذج السلجوقي السني.

من جهة أخرى قاد ابن تومرت حركة إصلاح ديني في المنطقة، وكانت حركة جديدة في أطروحاتها وتصوراتها،نقلت العقل الديني من سيطرة المنهج النقلي إلى هيمنة المنهج العقلي التأويلي. حيث كان ابن تومرت يعتقد أنه لا يمكن تأسيس مشروع

سياسي فاعل في مناخ اجتماعي يغلب عليه الجهل بالدين، وتنتشر فيه الخرافات والانحرافات، كما كان يعتقد أن تغيير العقول هو أساس بناء الدول القوية. ولذلك عمل منذ البداية على تأسيس حركة دينية إصلاحية، سرعان ما انتقلت إلى حركة سياسية، نجحت في ما بعد في إسقاط دولة المرابطين، وتأسيس دولة قوية على يد خليفته عبد المؤمن بن علي الذي لعب دورا فعالا في إنقاذ حركة ابن تومرت الإصلاحية، ونقل المشروع الموحدي من حيز مفهوم الجماعة إلى حيز مفهوم الدولة. وقد نجح عبد المؤمن بذكائه وحنكته في الاستفادة من تجربة مواجهة المرابطين، ومن التحالفات القبلية في المنطقة، وعرف كيف يحول المشروع السياسي الموحدي إلى أحد أهم القوى المؤثرة في خارطة التوازنات في منطقة المغرب الإسلامي.

Volume: 4 Issue: 2

قائمة المصادر والمراجع:

ابن تيمية ,أ .(1986) .منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية .جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

لصلابي ,ع .م .(1998) .صفحات من التاريخ الإسلامي دولة الموحدين .(عمان :دار البيارق للنشر).

الصنهاجي ,ا .أ .(1971) .أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين .الرباط :دار المنصور للطباعة والوراقة.

الصنهاجي ,أ .ب .(1975) .أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة المحوحدين ت .ع .حاجيات (.Dü ,الجزائر :الشركة الوطنية للنشر).

الغناكي، ا .ع .(1988) .سقوط دولة الموحدين .قار يونس :منشورات جامعة قار يونس.

ابن القطان الكتامي أبو الحسن علي بن محمد الفاسي. (د.ت). نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان. (تحقيق محمود علي مكي، المحرر) الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب.

ابن عذاري المراكشي. (1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (المجلد 2). (ج.س.كولا ن و ليفي بروفنسال، المحرر) بيروت: دار الثقافة.

ميراندا أمبروسيو هويثي. (2004). التاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية. (د. عبد الواحد أكمير، المترجمون) الدار البيضاء: المديرية العامة للكتاب والأرشيفات والمكتبات التابعة لوزارة التربية والثقافة والرياضة الإسبانية.

زمامة، م .م .(1979) .الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية .الرباط :دار الرشاد الحديثة.

ابن خلدون عبد الرحمن. (1988). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الفكر.

ابن تومرت محمد. (1997). أعز ما يطلب. الرباط: مؤسسة الغني للنشر.